

الطبعة الثانية

محمد توفيق





الخال

الخال

محمد توفيق

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف، صورة الغلاف: أحمد جمعة
صور الألبوم: أحمد عبد الفتاح، تصميم ألبوم الصور والوثائق: أحمد شهاب

المراجعة اللغوية: محمد عبد الله الشيخ

الطبعة الثانية ديسمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع: 2013/20211
ISBN: 978-977-6378-78-0



المدير العام: يوسف ناصف

عمارات العرائس
المعادي الجديدة - القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

محمد توفيق



دار المصري للنشر والتوزيع



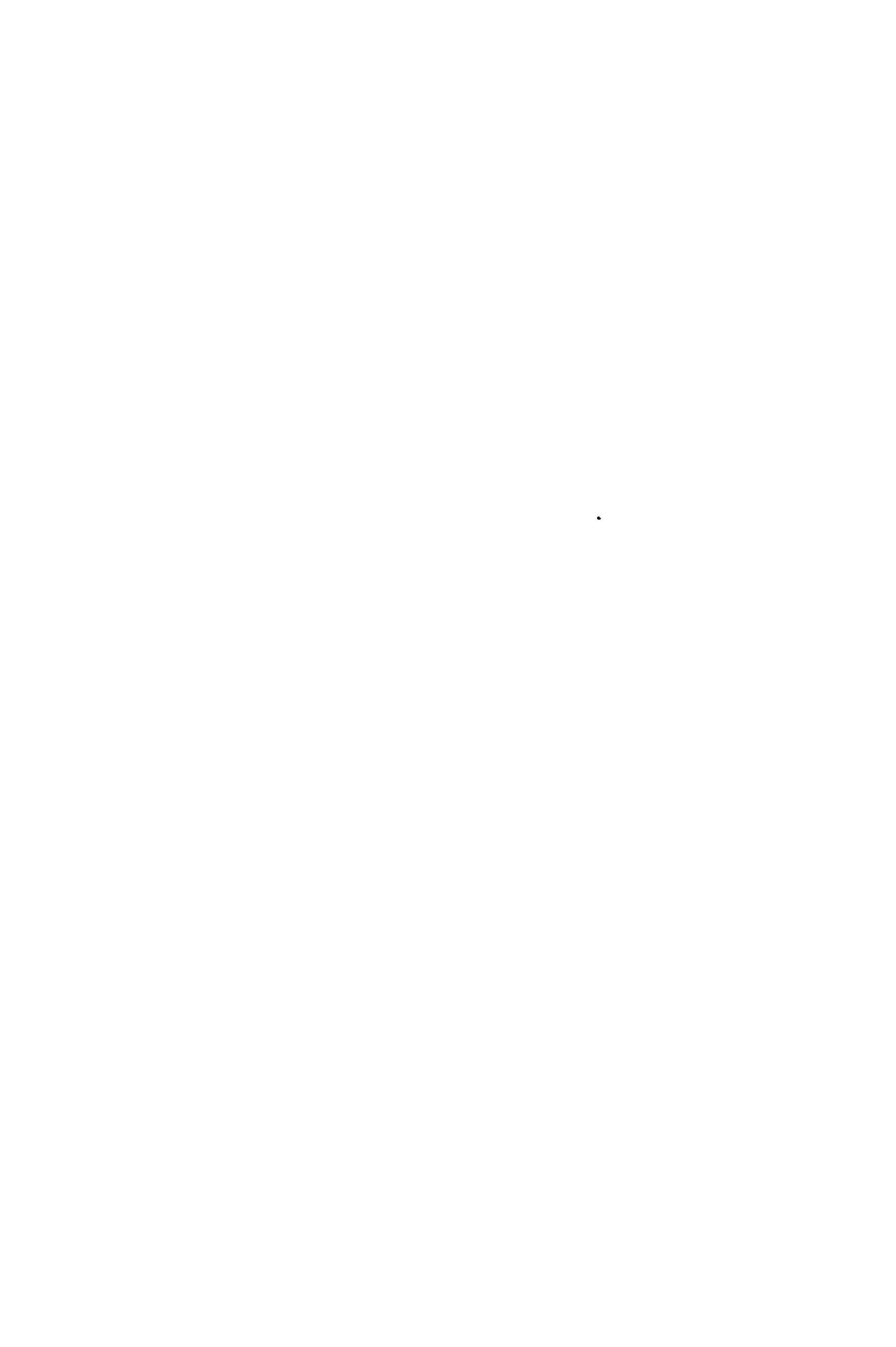
الإهداء

إلى الخال عبد الرحمن الذي كانت أمه تناديه بـ «رُمَّان»!

وإلى عمي محمد توفيق الذي سَطوْت على اسمه.

وإلى خالي مختار عبد المجيد الذي سَطوْت على كُتبه.

وإلى زوجتي التي سَطَتْ على كل شيء، اسمي، وكُتبي، وقلبي، وعقلي!



الفهرس

الشِّعر زيّ الصعيدي!

إذا كانت عجائب الدنيا سبعًا، فالثامنة هي أن تجد شخصًا لا يعرف الخال عبد الرحمن الأبنودي!

الكل يعرفه، النساء قبل الرجال، والشباب قبل الكبار، والبسطاء قبل المثقفين، والفقراء قبل الأغنياء.

الكل يعرف لغته، ونبرة صوته، وبساطته، وشعره، ورؤيته، وجرأته، ولمعة عينيه، ونظرته الثاقبة.

لكن كل هذا في كفّة وسائق التاكسي الذي أقسم لي أنه صديقه في كفّة أخرى!

فقد كنت أتحدث مع الخال في التليفون، وأنا جالس في التاكسي، وبعد أن انتهت المكالمة، سألني السائق: "أنت كنت بتكلم الأبنودي؟".

فبدَتْ على وجهي كل علامات التعجب، وقلت لنفسي ربما فَهِم من كلامي معه حول المربَّعات الشعرية، ثم قلت له: "أيوه يا سيدي".

فأكمل السائق كلامه: "طب ابقى سلِّم لي عليه!"، فضحكتُ وقلت له: "حاضر يا حاج" فقال لي: "طب مش تعرف هتقولّه مين بيسلِّم عليك"!

قلت له وقد وصلتُ إلى مرحلة الذهول: "أقولّه مين؟" فقال لي بثقة مفرطة: "قل له محمد اللي ركبت معاه في دمياط"!!

في هذه اللحظة لم أكن أفكر إلا في أن أصل إلى الجورنال من هول ما سمعت، معقول فيه حد متخيل إنه بمجرد أنه قابل الأبنودي مرة، واصطحبه يومًا أنه سيتذكره، فصمتُّ ونسيت الموضوع، وفي إحدى زياراتي للخال ذكرت له الواقعة وأنا مبتسم، فعلق الخال قائلًا: "يااااه طبعًا فاكره.. الله يمسّيه بالخير.. كانت أيام"!!

الخال لا يمزح فهو يتذكر سائقا اصطحبه منذ سنوات طويلة في واحدة من محافظات مصر التي جابها الأبنودي بطولها وعرضها مرارًا لكن هذا هو الخال الذي يعيش بالناس ومع الناس دون ذرة تعالٍ، فهو لا يكفُّ عن الحديث عن مساعده "محمود" الذي يعتبره مثل ابنه، وعن "عبده الحرامي" الذي بنى له بيته، وعن جيرانه في الإسماعيلية، والسويس، وقنا، وأبنود، والمهندسين!

هذا هو ميراث الأبنودي الأكبر من أمه فاطمة قنديل التي حين كانت مريضة وحضرت إلى القاهرة للعلاج، فاجأت مدير المستشفى بأنها تركت سريرها الأنيق وغرفتها المُرتَّبة في الدرجة الأولى من المستشفى، وذهبت

دون مشورته، إلى عنبر في الدرجة الثالثة لتجلس مع النساء المريضات في عنبر واحد مليء بالأسرة.

وفى أثناء وجودها في المستشفى، وجدَت سيدة تستغيث وتصرخ، من "طَلْق" الولادة، ولا أحد يستجيب لها، فقررت أن تقوم بتوليدها في العنبر بمعاونة بعض المريضات، وإذا بامرأة أخرى تصيح، فإذا بـ"قنديلة" تولّدها أيضا!

وبالفعل أتمَّت فاطمة قنديل عمليتَي الولادة على أكمل وجه وبحرفية عالية جعلت طبيبها ـ الدكتور سمير فياض وكان مديرا لَمبَرَّة مصر القديمة ـ يضرب كفًّا بكفّ!

لكن الغريب أن الأبنودي حين جاء إليها وسألها: "إزاي يا أمي تسيبي الدرجة الأولى وتروحي الدرجة الثالثة؟" فأفحمته قائلة: "يا ولدي جنة من غير ناس ما تنداس".

غادر الخال أبنود لكنها لم تغادره أبدًا.

عاشت في لغته، وحركاته، وسكناته، وانفعالاته، وأفكاره، ومشاعره، وأحلامه، ووجدانه، وتصرفاته، وأصله، ورقّته، وحسمه، وحزمه، وقوته، وذكائه الذي يبدو واضحا في عينيه فهو "مخبِّي في عينيه السحراوي تملِّي حاجات" ـ مثلما وصفته العمة يامنة ـ فهو يتحدث في كل شيء ويذكر في أحاديثه الممتدة عبر نصف قرن من الزمان أدق تفاصيل حياته لدرجة أنك تجزم أنه لا يمكن أن يكون لديه شيء يقوله بعد ذلك، لكن مخزون الخال لا ينفد أبدًا.

ففي كل مرة التقيته فيها سواء للحديث معه من أجل هذا الكتاب ـ أو

من أجل شيء غيره ـ كان يصدمني بوقائع مدهشة لم يعلن عنها من قبل، وبأسرار وتفاصيل لم يكتبها أو ينشرها أو يذكرها من قبل، كأنه يتحدَّى الزمن، ويريد أن ينتصر عليه.

فدائمًا لديه ما يخطف به الأضواء إذا انزوَتْ ـ لكنها لن تنزوي أبدًا ـ فلا أحد يتصور أن الخال كتب رواية لأمه بعنوان "قنديلة" ويؤجل موعد خروجها إلى النور، وألَّف كتابًا عن "ابن عروس" ولم يُسلم أوراقه إلى أي دار نشر بعد، وأن لديه عددًا هائلًا من المربعات قرر عدم نشرها.

هذا هو الخال كما عرفته، مزيج بين الصراحة الشديدة والغموض الجميل، بين الفن والفلسفة، بين غاية التعقيد وقمة البساطة، بين مَكْر الفلاح وشهامة الصعيدي، بين ثقافة المفكرين وطيبة البسطاء.

هو السهل الممتنع الذي ظن البعض ـ وبعض الظن إثم ـ أن تقليده سهل، وتكراره ممكن.

نحن المصريين مصابون بمرض تحقير مَن نعرفهم، والاستعلاء على الآخرين، ونحن غالبًا لا نعترف للعبقري بعبقريته لمجرد أنه يعيش بيننا ـ مثلما يقول العم خيري شلبي ـ نراه في لحظات ضعفه، نراه كإنسان عادي، وحتى إذا التفتنا إلى مواهبه فإننا لا نتعمقها، ربما لأننا أقل من أن ندركها، خصوصًا إذا كانت موهبة فذَّة.

لكن قيمة الخال الحقيقية تكمن في قدرته المذهلة على نقل الشعر من أحايث المثقفين إلى جلسات البسطاء، ومن حوارات النخبة إلى أحاديث العامة، لذلك فهو يؤمن ويردد دائمًا أن "الشعر زي الصعيدي تخونه مرة يخونك طول العمر"!

لذلك لم يَخُن الأبنودي قصيدته أبدًا، ظل متصالحًا مع نفسه حتى

عندما دخل السجن وحضر الحرب وسط القصف؛ لأنه يرى أن الشاعر الحق لا بد أن يمر بثلاث تجارب رئيسية وهي أن يعيش أجواء الحرب، ويدخل السجن، ويأنس بالحب، وقد مر بالثلاثة، لذلك كتب في بطاقته "المهنة: شاعر"!

لكنه لا يعتبر الشعر مهنته، وإنما يعتبره حياته، لذلك حسم اختياره منذ سنوات طويلة، وأعلن انحيازه التام إلى القصيدة والناس حين قال:

إذا مش نازلين للناس فَ بلاش

والزم بيتك

بيتك.. بيتك

وابلع صوتك

وافتكر اليوم ده

لإنه تاريخ موتي

وموتك

إذا مش نازلين للناس

فَ بلاش

ما دام الدايرة ماكاملاش

والحاجَة ماتَمّاش

وأصحاب الحاجَة ماعارْفَاش

إيه المعنى

وأيّ بطولة

فِ انّ حياتنا

واحْلَا سنينًّا

يروحوا بلاش؟

حاجة ماراكباش!!

الفصل الأول

الأرض والعيال



وانا صبي..

ساعات باقول الحكمة مايقولهاش نبي

وساعات غبي

تلميذ.. وبُكرة.. آه يا بُكرة..

حابْقَى فيك أستاذ

وباشِبّ واطْلَع والحبيبة ف إيدي.. والسِّلِّم قِزاز.



ما فعلَته فاطمة قنديل!

اليوم: الإثنين ١١ من أبريل عام ١٩٣٨م.

كانت السينما تعرض واحدًا من أهم الأفلام على مدار تاريخها، لكن تمت مصادرته في اليوم الأول لعرضه!

الفيلم هو "لاشين".

وقصته أن قائد الجيش حاول تنبيه الحاكم إلى ألاعيب حاشيته، وغضب الناس منها، لكن الحاكم الضعيف لم يستجب له، وترك حاشيته وأهله وعشيرته ـ يفعلون ما يشاؤون لدرجة أنهم قاموا باعتقال قائد الجيش!

لكن الأمور صارت من سيئ إلى أسوأ حتى حدثت مجاعة كبرى جعلت الشعب يثور ضد الحاكم، وحاشيته، وتم إسقاط النظام، وأفرج

الشعب عن "لاشين" قائد الجيش، واعتبروه بطلًا قوميًّا، وقائدًا عظيمًا وقف مع الشعب ضد الاستبداد، وأسهم في كشف الفساد، حتى عمَّت العدالة البلاد.

لكن عندما عُرض الفيلم للمرة الأولى تم اعتبار هذه القصة بمثابة عيب في الذات الملكية!

وتمت مصادرة الفيلم وتغيير نهايته، واعتبار أن كل ما جرى خلال أحداث الفيلم مؤامرة كبرى تعرض لها الحاكم، الذي انتصر في النهاية على المتآمرين، ووافقت الرقابة على عرضه بعد تعديله!

لكن المدهش أن صاحب هذا السيناريو البديع هو الشاعر أحمد رامي، وقد لعب بطولة هذا الفيلم ممثل درس التمثيل في فرنسا اسمه "حسن عزت"، وشاركه في البطولة الفنان حسين رياض، وأخرج الفيلم الألماني "فريتز كرامب".

في هذا التوقيت كان جمال عبد الناصر قد تخرَّج في الكلية الحربية، والتحق بالكتيبة الثالثة بنادق، وتم نقله إلى "منقباد" التي التقى فيها أنور السادات.

وعبد الحليم حافظ قد بلغ التاسعة من عمره، وقرر خاله أن يُودِعه في ملجأ للأيتام، وقضى حليم هناك ثماني سنوات حتى غادر الملجأ إلى معهد الموسيقى العربية.

.. وبيرم التونسي كانت تطارده السلطات الفرنسية، وتطرده من من كل بلد يذهب إليه بسبب سخريته اللاذعة من الاحتلال الفرنسي.

.. وفؤاد حداد التحق بمدرسة "الفرير"، وذهب صلاح جاهين إلى مدرسة الناصرية الابتدائية.

.. وكانت نُذُر الحرب العالمية الثانية قد بدت في الأفق بعد تعميم التدريب العسكري.

.. وتم تكليف محمد محمود باشا بتشكيل وزارته الثانية التي أطلق عليها "وزارة كبت الحريات وضرب الشعب"، وقد عيَّن محمد محمود باشا نفسه وزيرا للداخلية بجانب رئاسته للوزراء!

ولم تستمر هذه الوزارة سوى شهرين فقط!

هذه الحكومة رغم مساوئها العديدة فإنه كان من أبرز مزاياها أنها ضمَّت ثلاثة أسماء لامعة في الفكر، والدين، والأدب.

فقد تم اختيار المفكر الكبير أحمد لطفي السيد باشا ـ الذي لقَّبه العقاد بـ"أفلاطون الأدب العربي" ـ ليكون وزيرًا للدولة.

وصار الدكتور محمد حسين هيكل ـ صاحب أول رواية مصرية ـ وزيرًا للمعارف.

وتولَّى منصب وزير الأوقاف الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ شقيق الشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" ـ وقد تتلمذ الشيخ مصطفى على يد الإمام محمد عبده، بينما كان نجيب محفوظ واحدًا من تلاميذه.

في نفس التوقيت كان الملك فاروق يحتفل بزفافه على الملكة فريدة في دار الأوبرا المصرية، وذلك بعد أن أصدر مرسومًا ملكيًّا بحلّ البرلمان الوفدي، وقد ثار النواب الوفديون، ولكن الشرطة أخرجتهم من المجلس!

وفي نفس العام ظهرت ليلى مراد لأول مرة، ووُلد الأديب يحيى الطاهر

عبد الله، ونشر طه حسين كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، وظهرت أول مجموعة قصصية لنجيب محفوظ باسم "همس الجنون"، وظهر لتوفيق الحكيم روايته "عصفور من الشرق".

وسط هذه الأجواء، أنجبت فاطمة ابنها عبد الرحمن.

في تسعة أيام من النادر أن يعيش فيها إنسان، وإذا عاش فإنه يعيش عليلًا، وإذا وقف سرعان ما يسقط.

إنها أيام الحسومات، و"الحسومات" حسب التقويم القبطي ـ الذي ما زال أهلنا في قرى الصعيد يتبعونه ـ أيام تسعة، تأتي في وقت معين من السنة القبطية.

حينذاك كانت تنتظر فاطمة قنديل بزوغ الهلال الجديد بصبر فريد؛ لأنه يعني أن عمر ابنها الميت قد زاد شهرًا، وكانت الأم تصعد للهلال الجديد أعلى قمم البيت، لتصبح بمفردها مع الهلال وربّ العباد بعد أن يتشرب الغروب اسمراره المعتَّق لتلمع نجوم السماء فتضيء جسدها الذي يصعد منه الدعاء، وتكشف رأسها تناجي وتدعو وتتوسل إلى ربها.

في هذه اللحظة العصيبة حاول الشيخ محمود التخفيف عن زوجته، وقال لها: "دعيه يموت في هدوء، لا تتعلقي به.. اعتبري أنك لم تنجبيه.. شدّي حيلك وهاتي غيره.. ليس له عمر".

لكنها لم تستجب، ولم تيأس، ولم تفقد الأمل، بل كانت تقوم بجمع النساء حول جسد ابنها الميت البالي، وتُشعل البخور، وتظل تبتهل إلى الله وتدعوه بفيض من الأدعية وأطنان من الطقوس التي مارستها بجنون حتى يظن من لا يعرفها أنها تنتظر مولودها الأول لا الرابع!

كانت فاطمة تفعل ذلك كل ليلة في الصباح والمساء، وتخلع ملابسها، وتتطهر، وتخرج في قلب الليل، وعند استقبال الفجر تتوسل إلى الله أن يظل ابنها حيًّا، وقد استجابت لها السماء؛ لذلك ظلت فاطمة قنديل تشعر بأنها حققت أكبر معجزة في الدنيا؛ وهي أنها أبقت ابنها "عبد الرحمن" على قيد الحياة بعد قتال مرير، وحرب ضروس ضد الطبيعة وقوانين الوجود بخبرتها الطبية النادرة، ووعيها بتجارب السابقين.

فقد رأت فاطمة قنديل في المنام - خلال فترة الوَحَم - حمارة وَلَدَت جحشًا رفيعًا عليلًا! رأته بعد ولادته مباشرة على تلك الحالة التي لا يقوى فيها أي جحش صغير على المشي، رأت الجحش الهزيل، ورأتهم يربطون ركبتيه بحبال كي تتماسكا؛ لذلك حين أنجبت ابنها، ووجدته غير قادر على استعمال ركبتيه كأنداده جميعًا، استوحت فكرة حبال الجحش، ونقلتها من ركبتَي الحيوان إلى ركبتَي الإنسان، وربطت ركبتَي وليدها عبد الرحمن بأشرطة الأقمشة المضفرة حتى لا تتفككا!

في هذه الظروف الاستثنائية وُلد "عبد الرحمن محمود أحمد عبد الوهاب حسن عطية حسن أحمد عبد الفتاح عمران" الذي صار في ما بعد الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودي؛ نسبةً إلى قريته أبنود التي نشأ بها، وعاش فيها طفولته، وعمل بها راعيًا للغنم.

ومهنة الرعاة هي مهنة الأنبياء - مثلما يصفها الخال - "يا تطلع منها نبي يا تطلع شاعر" لكثرة ما فيها من تأمل للطبيعة والناس.



حرامي الرُّمّان!

كان "عبد الرحمن" يستيقظ كل صباح ينتظر غنمه التي يرعاها أمام باب البيت.

في كل صباح تجد كل أبواب البيوت وقد فُتحت وقفز منها الماعز والخرفان وتنخرط جميعًا في طابور وتملأ الدنيا غبارًا، والأطفال وراءها يستعدّون للرعي وهم حفاة، فلم يكن أحد وقتها يملك حذاءً حتى مَن كان يملك حذاء من الكبار لم يكن يستعمله في أغلب الأحيان.

فكانت "ست أبوها" جدة عبد الرحمن تسير في عز القيالة إلى مشاوير العزاء الطويلة ملتفَّة بِبُردتها، تلقف من الحَرّ وتوحِّد وتستشهد خوفًا من أن تموت، تزيح الباب ذا الضلفة الواحدة كأنها قادمة من السعير وتجلس على أول شيء مرتفع. تفرد في الأرض "المبخوخة" قدميها المتورمتين الحافيتين، وقد نسيت حذاءها المعقود فوق رأسها، كأنها فقط كانت تقول

للآخرين إنها تملك "مداسا"!

كان الرجال يفعلون ذلك حتى في الملابس!

وأحيانا إذا ما ورَّمت القيالة القدمين المنتفختين، كانت "ست أبوها" تدق عدة "بَصَلات" عليها ملح تلطخ به رجليها حتى الساقين لـ"يفشّ" الورم وتعود الساقان إلى طبيعتهما القديمة.

تعرف أن كل هذا سيحدث لها، ومع ذلك تنسى حذاءها المعقود فوق رأسها وتخوض حافية في "لهاليب" جهنم.

لكنها لم تكن وحدها التي تفعل ذلك، كأن الحذاء حرام أو عيب "يقولوا عليّا لابسة جزمة؟! ليه رايحة أتجوّز ولّا رايحة عُرس؟ دي جنازة يا ولدي. ده واجب".

في هذا الزمن لم تكن فكرة الحذاء مطروحة أصلًا، وتبدو فكرة أسطورية بعيدة التخيل والمنال، لكنها لم تكن تخطر على بال أحد في أبنود؛ لأن الأفكار تخلقها الحاجة، ولم يكونوا يشعرون أنهم في حاجة إلى حذاء.

في ذلك الوقت حتى لو امتلك أحد هذا الحذاء فإن القدرة على استخدامه كانت معدومة؛ لأنه ليس من المعقول أن يذهب طفل بحذاء للرَّعْي، في التراب والماء والوحل.

الرعي مهنة أساسها الحرية ـ مثلما يقول الخال ـ حرية البدن والساق بالتحديد؛ للكر والفر والمطاردة والمحاصرة والمسايسة، تردّ من هنا وتصدّ من هناك، تزعق وتعوي، وتضرب، وتردع حتى يسمعك جيدًا صاحب الحقل الذي اعتدَتْ عليه بهائمك فيغفر لك خسارته وإلا خربت الدنيا.

الحذاء هنا شيء معطّل، شيء في مصلحة الماعز وضد صاحب الحقل

وضدك، شيء يهيئ للعنزة الطائشة أن تطيش، والنعجة الهاربة أن تتمكن من تنفيذ مخططاتها اللئيمة.

لذلك كان الجميع حفاة، كلهم يرتدون قميصًا واحدًا خامًا رخيصًا يستر نصف البدن، أما فكرة الملابس الداخلية فلا تنشأ إلا قبل ليلة الزفاف بوقت قصير!

والراعي ليس مجرد راعٍ فقط، فهو صائد أيضًا يكون معه دائمًا "جلاب فَخّ" به بعض حبّات ذُرة، ويُنصب في أماكن نزول اليمام، ويُغطّى "الجلاب"، ويُظهر منه فقط حبة ذرة، حتى يُمسك بواحدة من اليمام الطائر الحائر بين الحقول.

هكذا عاش "عبد الرحمن" ـ حتى بلغ الخامسة من عمره ـ مع أقرانه حياة فقيرة لكنها مُلهمة حتى إنه يعتبرها أيامه الحلوة رغم كل ما فيها من قسوة.

فكان على الطفل الصغير أن يأتي بطعامه بنفسه، ويأخذ سنارة، ويذهب بها إلى النهر ليصطاد السمك الذي يكفيه قوت يومه، وإلا مات جائعًا، وعلى شاطئ النهر ليس أمامك أكثر من أن ترفع هذا القميص لينزلق على الأرض بسهولة لتقفز في الماء، وعند الخروج، ليس هناك وسيلة تجفيف غير أن تضع القميص مرة أخرى على بدنك، وستتكفل الشمس الصعيدية الجبارة بتجفيف ماء النهر والعرق، حتى الدماء في دقائق.

في ذلك الزمن كان الصبي لا يملك غير جلباب واحد من "الدَّمُّور الخام" حُثالة القطن، أبيض أقرب إلى البني، يبقِّعه بلح النخيل ولوزات القطن إلى أن يختفي على آخر العام لونه القديم تماما.

وكان "عبد الرحمن" مثل كل أقرانه يملك هذا الجلباب، لكنه أراد أن يستخدمه بصورة مختلفة يروي تفاصيلها قائلًا: كنتُ أعتقد أن سيّالتي ـ الجيب الطولي الذي بجانب ثوبي ـ قد تتسع لرمانة أو رمانتين، لكني اكتشفت غير ذلك حين خطّطت لأول سرقة في حياتي! فقد كان في ظهر بيتنا جنينة واسعة اسمها جنينة "علي غزالي" وكانت بالغة الاتساع مزروعة فقط بالرمان، وكان رمانها يغطي أسواقًا كبيرة لمناطق بعيدة، لذلك تصورت أنه لن يفطن أحد إلى هذه السرقة البسيطة التي لا أريد منها سوى رمانة أو اثنتين، كما يمكنني إخفاء القشر بالدفن في تراب الفرن أو في قلب شونة التّبن. وحين استقر الأمر، وعقدتُ النية على السرقة، انزلقت من على الجدار العالي إلى أرض جنينة "علي الغزالي"، وحين لامست القدمان الأرض، كانت الركبة قد تسلخت، وأَدْمَت نفسها، لكني لم أكن أحس شيئًا، واكتشفت كل ذلك بعدها بكثير!، ووجدت نفسي في الجنينة بين الأشجار، وحيدًا.

وبدأتُ أمدُّ يدي داخل الفروع الشوكية، وأنتزع الرمانة لأكتشف أنها لا تُنتزع، فبدأت أديرها وألفّها كأنك تفتح حنفية إلى أن يروق العود الرفيع القوي الذي يمسك بالرمانة من كثرة لَفّ الرمانة فتنقطع، كلما قطعت واحدة تلألأت لي أختها، وجدتني في النهاية وقد كومت كومة كبيرة، لم أجد صعوبة في العثور على حبل ربطت به وسطي و"عبعبت عِبِّي ـ كما تعلمت من جني القطن ـ ورحت أضع الرُّمَّان حتى امتلأ.

فجأة وجدتُ على رأسي "منسي" ـ رحمه الله ـ وهو ابن "علي" وهو أكثر البشر بدانة في أبنود.

جريت لأهرب فلم أستطع لدرجة أن "منسي" البدين الثقيل الذي لا يتحرك أمسك بي بسهولة أنا العفريت الخفيف الذي يقفز كالغزال،

كان الرُّمَّان في عبّي أثقل من وزني نفسه، لم أكن قد اكتشفت أنه ثبّتني في الأرض كالجدار القديم، فَصِحْت: "يا امّه".

سمعتْ أمي صراخي ففزعتْ، واعتقدتْ أني سقطتُ في البئر، وراحت تنظر والصراخ يأتيها من جهة أخرى إلى أن اهتدت إلى مكاني، واعتقدت أني سقطت في الجنينة دون قصد وأنا أطلّ من سور "الزَّرب".

بعد قليل تفهمت الموقف من قبضة "منسي" الممسكة بكُمّ قميصي الدَّمور، وذلك العِبّ المليء بالرمان.

أفرغت الرُّمَّان وخرجت إلى بيتنا من باب الجنينة يملؤني الخجل ويجلّلني العار، وجاء والده بالرُّمَّان بعد أن وبَّخ ابنه، وقبل أن ينصرف الرجل سأل جدتي عن اسم ابنهم الذي قفز الجدار، فأجابت أمي من الداخل: "رمّان".

من يومها، وصار اسم تدليلي "رمّان" في بلدة لا تدلل أبناءها.

ويعلّق الخال على هذه الواقعة قائلًا: لو لم يقتحمني الشعر ويتلبسني ويأخذني من كل هواية أو متعة أخرى لصرتُ لصًّا حاذقًا خفيف اليد.

هكذا يمكن أن نقول إن الشعر أنقذني من السجن المدني لكنه قبض الثمن حين زجَّ بي إلى زنازين السجن السياسي!



١٤ قرشًا من الملك فاروق!

ترك الأبنودي الغنم، وذهب إلى كُتَّاب "الشيخ امبارك"، وكان يوم "التسميع" في الكُتَّاب يتم بالشاكوش وصبغة اليود، ومن لا يحفظ تُشقّ رأسه بشاكوش الشيخ!

ويقوم مساعداه الشيخان "همام" و"رمضان" بوضع كمية لا بأس بها من صبغة اليود في حفرة الرأس، وبعض لوزات قطن ببذرها، وكان يوم الخميس أيضًا هو الذي ندفع فيه "الخميس" للشيخ ثمنًا للعلم الذي نتعلمه، و"الخميس" هو عشرة مليمات إذا لم ندفعها كان عقابنا منه أشد من عقابنا عن عدم الحفظ ساعة التسميع.

كان هذا السلوك ثابتًا قدريًا لا يتغير ولا يتزحزح من مكانه حتى لو انطبقت السماء على الأرض إلا في ذلك اليوم الذي لم يكن لاختلافه مثيل، والذي بطش بالسلوك التقليدي المحكم لكُتَّاب مولانا "الشيخ امبارك".

كانت المرة الأولى التي اختلَّت فيها الموازين وعصف القدر بكل النظم الحديدية التي أسسها الشيخ، فلم يقف طابور التسميع الذي يتم دائمًا تحت تهديد الشاكوش وبصحبة صبغة اليود.

والأعجب أن الشيخ لم يطلب من تلاميذه دفع "قرش الصاغ" رغم أنه كان أول ما يفعله في صباح يوم الخميس أن يمد يده لتسلُّمه.

هل نسي قرش الصاغ أم نسي أن اليوم هو الخميس؟!

لكنه لا ينسى، ولم ينسَ، لكن الحدث أكبر من أن يلتفت الشيخ إلى قرش الصاغ، لدرجة أنه لم يصطحب الشاكوش معه في ذلك اليوم، ولم تَكْسُ ملامحه تكشيرته المعتادة، بل إنه كان يرتدي ملابس نظيفة رغم أنه لا يفعلها إلا في أول الأسبوع.

الكل ظل ينتظر ليعي ماذا حدث؟

وفجأة، دخل رجال يرتدون ملابس أنيقة للغاية، لم يَعْتَدْ التلاميذ على رؤية مثلها من قبل، وربما كانت المرة الأولى التي يرون فيها الأحذية اللامعة.

وخلف هؤلاء الرجال كان هناك آخرون يحملون حقائب جديدة، وقد كانت أيضًا المرة الأولى التي يرى فيها التلاميذ شيئًا يمكن حمله في اليد سوى المقاطف.

وتقدم أكثر الرجال أناقة ووسامة وقال: "نحن هنا في كُتَّاب حي الأشراف، بِاسْم الشريف الأعظم الذي ثبت أنه ينتسب إلى آل البيت: مليكنا المعظم جلالة الملك فاروق ملك مصر والسودان".

وأكمل الرجل كلامه قائلًا: "بمناسبة زيارة مولانا المعظم جلالة

الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان إلى مدينة قنا لوضع حجر الأساس لمسجد سيدي عبد الرحيم، وبمناسبة ثبوت نسبه إلى الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وابتهاجًا بهذه المناسبة قرر الملك الحبيب أن يهب كلا منكم نفحة ودية، وهدية ملكية، لكي تدعو له بالرفاء وطول البقاء".

صاح "الشيخ امبارك": "رُدّ يا واد: يعيش الملك الصالح"، ورد خلفه تلاميذه بحماسة مَن أدركوا أن شيئًا خطيرًا يحدث في الدنيا، وأن هتافهم سوف يمنع جدار مصيبة كبرى من الانهيار: "يعيش الملك الصالح"، ويهتف الشيخ: "حفظ الله أياديه البيضاء".

أنهى الرجل حديثه وأشار إلى التلميذين اللذين في "التختة" الأمامية أن يتنحّيا، وأن يتركا المكان دون أن يقول ذلك لهم قولا، لم يفهما، لكن "الشيخ امبارك" الذي فهم، فَرَدَ كفّ يمناه، ودفع بالتلميذين ليجدا نفسيهما ملتصقين بجدار الفصل الواسع ولم ينتبه إلى ذلك أحد، إذ حلقت العيون في تلك الحقيبة التي فُتحت ليشعّ منها ضوء خطف أبصار الجميع.

كانت الحقيبة الجلدية الأنيقة مليئة بقطع نقدية ذات أضلاع وقرون، وعرف التلاميذ أن تلك القطعة ذات الأربعة أضلاع قيمتها قرشان، وكانوا يطلقون عليها اسم "التُّمْن"، لكنَّ أحدًا لم يكن رآها على تلك الصورة المضيئة من قبل.

"شنطة" بحالها مليئة بذلك "التُّمن" الجديد الذي زغلل عيون الجميع، إذ لا يحدث شيء كهذا إلا في حكايات الأمهات، والجدَّات ليلًا حين يفتح الكنز بعد أن يأمره المارد، لكن المارد في الحكايات كان دائمًا أسود،

أما هذا المارد فبياضه يثير العجب، كأنه لم يأكل في عمره سوى اللبن والجبن الأبيض والجير والبطيخ الأقرع ـ مثلما يصفه الخال.

اندفع ثلاثة رجال من الزائرين الذين لم يسمع أحد صوتهم، ليقوموا بتوزيع النقود، فصاح "الشيخ امبارك": "افتح يدّك ياد أنت وهوّه".

فتح التلاميذ أيديهم، ومرّ الثلاثة، كل منهم استلم صفًّا، وظلوا يضعون في كف كل تلميذ سبعة "أتمان"، أي سبع قطع نقدية، قيمة القطعة قرشان، يعني أربعة عشر قرشا، محبة وهدية من "الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان".

ثم فجأة اختفي الجميع.

لم يعد هناك أثر لهؤلاء النازلين من الكوكب البعيد، ولا للمشايخ الثلاثة (امبارك وهمام ورمضان)، وفجأة خُيِّل للتلاميذ أن الشيخ سيعود بعد أن يقبض المعونة لكُتَّابه وسيتذكر "قرش الخميس" الذي نسيه في هوجة الرجال والأموال، وظنوا أنهم ربما حاصرهم في كُتَّابه وهددهم بشاكوشه وصبغة اليود أو بـ"الفلكة" ليستولي على أموالهم، فوضع كل تلميذ الأموال في "ذيل جلبابه"، وربطه جيدا ودون أن يقول أحد كلمة لأحد، وأطلقوا جميعا سيقانهم للريح، ليعود "الشيخ امبارك" فلا يجد أحدًا!

لم يرَ عبد الرحمن الأبنودي الملك فاروق أبدًا، ولم يعرف أنه ملك مصر والسودان إلا في ذلك اليوم الذي زار فيه الملك قنا لافتتاح مسجد السيد عبد الرحيم القنائي، فقد كان عمره وقتها عشر سنوات.

ولكن الخال ما زال يتذكر هذه الواقعة التي لم تغب عن ذاكرته، ويروي ما حدث وقتها بقوله: ذهبت إلى بيتنا فَرِحًا بهبة مولانا المعظم

الملك "فاروق الأول" ملك مصر والسودان، زغردت "فاطنة قنديل" حين رأت القطع المعدنية تلمع، وحين عرفَت أنها من الملك.

صارت تردد بدهشة أقرب إلى الرعب: "الملك؟"، "الملك"!

صحيح أنها أُحبطت قليلًا حين عرفت أن هدية الملك عامَّة وليست خاصَّة بابنها، ولكن الأربعة عشر قرشًا التي وضعتُها أمامها ظلت مصدر إشعاع خفيّ لَخْبَطَ عقلها وأربك "جتّتها"، واستدعت جارتها التي لم تُرزَق أطفالا بعد!

ويكمل الخال حديثه قائلًا: جاءت الجارة تهرول وتسأل "إيه الحكاية يا أم جلال؟"، فقالت أمي بصوت تمتزج فيه ثقة العارف، ورقّة الحكماء، وهيبة أصحاب الأسرار: "خدي"، وأعطتها كبشة من نبات "الدمسيسة" الطبي، وقالت لها: "روحي اطَّهري واتوضي وصلي ركعتين لله وتعالي".

وذهبت المرأة بالفعل.

ثم عادت الجارة الشابة، وقد تطهرت، هنا قالت لي "فاطنة قنديل": "اطلع بره يا واد عيب ماتتحشرش وسط الحريم"، وخرجتُ وأنا أخشى على نقودي من العفاريت التي ظننت أن أمي تقوم بتحضيرها.

وفرشَت أمي منديلًا أبيض نظيفًا على الأرض ووضعتْ فيه النقود ـ منحة الملك فاروق ـ وصاحت في الجارة: "خَطِّي"!

سبع مرات، خطَّت الجارة فوق النقود، و"فاطنة قنديل" تدعو "يا عاطي يا وهاب، يا مسبب الأسباب، من فضلك وفيضك، إدِّي جاريتك الغلبانة، المحتاجة العشمانة، عيل يملا البيت، ويصوم ويصلي، حلفّتك بالنبي والكتاب، وبالبخاري باب باب".

لكن حين جاء الشيخ الأبنودي، وعلم بالأمر قرر أن يقبض على فلوسي ليحفظها لي خوفًا من أن أضيعها لأني "ما زلت عَيِّلا"، وخوفًا من عدم قدرة "فاطنة قنديل" على الاحتفاظ بشيء؛ إذ إن "يدها مخرومة"!

ويستطرد الخال الأبنودي: هكذا ذهب أبي بالكنز ليضعه في "علبة كروت" تحمل اسمه وأَحْكَم عليها غطاءها، وأغلق درج مكتبه الذي كان عبارة عن منضدة كبيرة يكتب عليها قسائم الزواج والطلاق، وأغلق الشيخ باب الغرفة الذي كان بروازاه العاليان خاليين من الزجاج الذي كان مفروضًا أن يجعل اقتحامهما مستحيلًا.

لم يأتِ الشيخ الأبنودي على ذكر "السبع اتمان" ذات الأربعة أضلاع مرة أخرى، وكأنها سقطت في بئر، ومع طول مدة اختفائها وتجاهُل الوالد لوجودها اضطُررت إلى ارتكاب أول جريمة عائلية في حياتي!

لقد فعلها عبد الرحمن حين خطط لسرقة الـ١٤ قرشا من الشيخ الأبنودي، وظل يراقب والده، ويتابعه حتى علم أنه قد خبأ النقود فى درج المكتب، فتسلل إليه، واسترد ماله، وذهب ليشتري "مِعزة" وأطلق عليها "أبو الهول"، وفوجئ الشيخ الأبنودي بما حدث، لكنه لم يُعلق، وكتم غضبه من ابنه فى نفسه وسكت، حتى حانت الفرصة ليرد له ما فعله، فعندما حضر ضيوف لبيت الأبنودي، قرر الوالد أن يذبح "المعزة" ليرحب بضيوفه؛ لكن "عبد الرحمن" لم يعلم بما حدث، وبعد الغداء سأل أمه: "المعزة فين؟"، فكان ردها "أُمال أنت أكلت إيه؟"!!

شورت المدرسة

وذهب الخال إلى المدرسة بالشورت!

وكانت قرية أبنود في مطلع الأربعينيات بها مدرسة واحدة فقط، وكانت تلك المدرسة عبارة عن غرفة واحدة فقط، ولم يكن بها سنوات دراسية، لكنها كانت إلزامية.

الكل يدرس نفس الشيء، كل أبناء القرية يجلسون في نفس الغرفة، ويتلقُّون نفس التعليم، فقد كانت أشبه بالكتاتيب؛ لذلك لم يذهب إليها "عبد الرحمن" سوى يوم واحد فقط واحد ثم رفض أن يذهب إليها مرة ثانية؛ لأن حنينه إلى الغيط والحقول والبراح كان يجعله يشعر بأنه في سجن - على حد تعبيره - لكنه ما زال يذكر حتى الآن الرجل الذي أتى على الحمار - في أثناء وجوده في المدرسة - يحمل البيض والعيش ليقوم بتوزيع "الوجبة" على التلاميذ.

لكن بمجرد أن وطئت قدم "عبد الرحمن" مدينة قنا، وقبل أن يتطلع إلى وجه والده، أخذه من يده، وزجَّ به إلى مدرسة صغيرة بجوار محطة القطار، قبل أن يشتري له ملابس المدرسة التي كانت عبارة عن بنطلون شورت وقميص وطربوش.

كانت هذه المدرسة ذات أعمدة خشبية، وأسطح خشبية تماما كتلك الأسطح الخشبية للركاب على أرصفة القطارات، كأن المدرسة نُصبت مؤقتًا للاجئين طُردوا من أرضهم، وعند عودتهم سوف تُفكّ تلك الأعمدة والأسقف الموجودة عليها ولن يصبح للمدرسة أثر.

المدرسة كانت تهتزّ مع مرور كل قطار، وكان جرس الحصص يختلط مع جرس المحطة، فلا تعرف أيّ الجرسين لنهاية الحصة، وأيهما لقيام القطارات.

وكان التلاميذ يجلسون في الفصول كأنهم على سَفَر، تهتزّ "التختة" من تحتهم كأنهم في قطار الدرجة الثالثة وعلى كراسيّه الخشبية ذات الألواح المستطيلة القاسية التي تظل تهتزّ وتكتشف حين تغادر القطار أن مؤخرتك صارت شرائح وقُسِّمت إلى مستطيلات بالعدل والقسطاس.

كان "عبد الرحمن الأبنودي" قادما للتوّ من القرية، ولم يتخلص من زمن الفرجة ولم يكن قد صعد رصيف محطة أبنود إلا يوم مجيئه، فقد كان في أثناء رعي الغنم حين يرى القطار مقبلا يجري إلى المزلقان ويمتطيه ويلهو فيه جيئة وذهابًا كأنه مرجيحة؛ لذلك دفع نصف القرش - مصروفه اليومي بالكامل - لزميله الذي يجلس بجوار الشباك حتى يجلس مكانه ليطل على المحطة، ويرى أحشاءها من الداخل طوال عام دراسي كامل قضاه في مدرسة المحطة التي لا يذكر أنه تعلَّم فيها شيئًا حتى تركها.

ويعلِّق الخال الأبنودي على تلك الفترة بقوله: العجيب في الأمر أننى لا أذكر مدرِّسًا واحدًا من مدرستي أو درسًا واحدًا تعاطيته، لا أذكر زميلًا واحدًا على الرغم من طول العام الدراسي.

ويواصل الخال حديثه: إنها كانت حلمًا؛ فلقد ذهبت منذ سنوات قليلة لأبحث عن هذه المدرسة فلم أجدْها، بل إنني حاولت تحديد مكانها فلم أستطع؛ إذ إن محطة قنا أُعيد بناؤها فتغيرت تضاريسها تبعًا لذلك، ولم أقدر على تحديد "مطارح" الرؤية القديمة التي استمتعت بها لعام كامل نظيرنصف قرش اشتريت به المكان من تلميذ مثلي!

لكن حين ذهب "عبد الرحمن" إلى مدرسة "سيدي عبد الرحيم الابتدائية" اكتشف أنه ليس في حاجة إلى كتاب المطالعة، فقد حفظه عن ظهر قلب، وكان ذلك بفضل أستاذ اللغة العربية "أحمد عمر" كان يحبه إلى أبعد الحدود، ولا يعاقبه في ما يعاقب الآخرين عليه، وأهمها أن تلميذه النجيب لا يحضر كتبه، إذ لم يكن في حاجة إليها.

كان الأستاذ أحمد يقرأ الدرس بصوته الرخيم الجميل حتى ينهيه ليقول جملته التي يتوقعها الجميع: "اقرأ يا عبد الرحمن". فيقف "عبد الرحمن" ليقرأ من الذاكرة الدرس سواء كان قطعة مطالعة أو نصًّا شعريًّا أو سورة قرآنية من دون خطأ.

لذلك حين تم توزيع الجوائز على المتفوقين كان نصيبه "حمالة بنطلون" بلاستيك صحتها هزيلة ومطاطها لا يَمطّ ولم تقوَ على رفع البنطلون أكثر من يومين "وراحت ميت حتة"، وحين سأله الأستاذ أحمد عمر عنها قال: "نسيتها في الشمس ساحت" فضحك الجميع.

والأستاذ "أحمد عمر" هو أول من قذف به إلى خشبة مسرح المدرسة

ليلقي "خطبة" كتبها وساعده في صياغتها أخوه الأكبر "الشيخ جلال".

في هذه المرحلة كان الأبنودي يحفظ الشعر بسرعة فائقة، وكذلك القرآن الكريم الذي قد حفظه في كُتَّاب "الشيخ امبارك".

كان الأستاذ "أحمد عمر" نقطة تحوُّل كبيرة في حياة عبد الرحمن الأبنودي، ولولاه ما أحبّ الخال اللغة العربية واستطاع تطويعها في شعره؛ لذلك كان الخال الأبنودي حريصًا في إحدى زياراته لقنا منذ سنوات أن يبحث عن الأستاذ "أحمد عمر" ويذهب إليه في منزله، ويقضي معه ساعات يتذكر فيها أيام المدرسة، ليشعر الأستاذ أحمد بقيمة ما فعله قبل أن يرحل عن الدنيا.

لكن على النقيض تمامًا كان الأستاذ "نصر توما" مدرس الحساب، فقد كان إنسانًا جادًّا وصارمًا لا يسمح بالخطأ ولو على سبيل السهو.

وقد أدرك الأستاذ "توما" منذ وقت مبكر أن عبد الرحمن والحساب لا يلتقيان، فصار عبد الرحمن مقصد أستاذ الحساب دائمًا، فكان أول من يوجِّه إليه الأسئلة، وينتظر جوابه الخطأ، ليقول له قولته الأثيرة إلى قلبه "عبد الرحمن.. اقلب إيدك" ليضربه بسن المسطرة على ظهر اليد في أيام الشتاء القارس حتى يفقد إحساسه بيده التي لا يستعيد عافيتها قبل مرور حصتين على الأقل، لدرجة أنه كان يعتقد أن فكرة البنج أخذوها من مسطرة الأستاذ "توما"!

الأستاذ توما كان مندهشًا من حال عبد الرحمن الذي يعلم أنه متفوق في كل المواد؛ لذلك سأله ذات مرة: "لماذا أنت مُصرّ على أن تعادي الحساب وتعاديني؟ هل لأنك تكرهني؟ الحساب علم سهل فلماذا تصرّ على مقاومته؟".

وجاء رد "عبد الرحمن" قاطعًا لآخر خيط في علاقته بأستاذه: "يا أستاذ، مادتك هذه يهتم بها أبناء البقالين أو من ينوي أن يتخرج كاتب شونة، يحب الولد منا المادة كمحبته لمدرِّسها، وأنت أيها القاسي الذي تضربني على ظهر اليد بسيف المسطرة من المستحيل أن أحبك، وبالتالي لن يجبرني أحد على أن أحب حسابك، لا شك أن أحدهم كان يضربك فجئت هنا لتردّ لهم ضربهم لك على ظهر كفي".

من يومها كلما دخل "نصر توما" الفصل ورأى عبد الرحمن طرده خارج الفصل حتى يرسب. لكن رغم ذلك نجح الأبنودي رغمًا عن أستاذ الحساب، وغادر إلى المدرسة الثانوية، وحتى الآن ما زال يكره الحساب؛ لكنه ليس وحده فأغلب المبدعين كرهوا هذه المادة!

وقد سألت الخال عبد الرحمن الأبنودي عن سر كراهية عدد كبير من المبدعين العظام للحساب فقال: المبدع بطبيعته يملك عقلا حرًّا، ولا يمكن أن تضعه في قالب ثابت؛ لذلك يأتي له الحساب مثل "عفريت العلبة"، كله مربعات، على مثلثات، ورموز مش مفهومة، ويدخلك في عالم هندسة مقفول وأنت العالم بتاعك حر، وتجد الشاطر في الحساب مايعرفش حاجة غيره، أما العربي فـ"براح"، وفيه لا تؤمن بأن "واحد وواحد يساوى اتنين" على الإطلاق.

لم تختلف نظرة الأبنودي إلى الحساب رغم مرور سنوات طويلة جدًّا تغير فيها كل شيء تقريبا، لكن ما زالت هذه المرحلة محفورة في وجدانه، خصوصًا حين ذهب إلى مدرسة قنا الثانوية التي عرف فيها طريقه، وحدد فيها هدفه بالصدفة!

الفصل الثاني

بعد التحية والسلام



يا عبد التواب..

شَعرك شاب.

شَعرك شاب يا حِلْو..

وماعُدْتّش قُدَّام الخلق..

شباب



أسطورة الأبنودي الكبير!

هكذا تقول الأسطورة!

كانت قبيلة "التروسة" - التي ينتمي إليها الخال - تشتهر بفحولة رجالها، من حيث جسامة وضخامة الأبدان، وشدة وقوة العزائم، حتى لقد صار رجالها مَضرِب المثل في القوة، ويشار إليهم في السرّ والعلن!

و"التروسة" قبيلة عربية مهاجرة من الجزيرة العربية، وقد زحفت إلى بطن النيل لتقاتل الفرنسيين، ونزلت في مكان مرتفع خارج البلدة سُمِّي "النزيلة" - أيْ مكان ما نزلوا - ثم أُطلق بعد ذلك عليه اسمها الذي اشتهرت به وهو "التروسة".

أما أصل تسمية "التروسة" فيرجع إلى أنه قد سقط "ترس ساقية" خشبيّ في بئر ساقيته العميقة في أحد حقول أبنود، لو جُنِّد كل الرجال والبغال والثيران في محاولة لإخراجه من جوف الساقية العميق الموحش

لفشلوا، لكن الرجال لم ييأسوا؛ فإذا ما تركوا الترس في الساقية وركّبوا بدلًا منه ترسًا آخر فسيكون ذلك رمزًا لنقصان الرجولة وعنوانًا للتخاذل؛ لذلك تجمع رجال القرية جميعًا، ونزل بعضهم إلى ظلمات الساقية العميقة، وأرسل مَن فوق الحبالَ إلى من تحت، وربطوا "السَّلَب" وصاح مَن صاح، وشَدَّ مَن شَدّ.

وكلما صعد الترس مترًا سقط سقوطًا مدويًّا وأطاح بمن فوقه وهدَّد مَن تحته، وفشلت كل المحاولات المستميتة في رفع الترس الثقيل جدًّا.

لكن على عتبات الفشل جلس الجميع منهَكين محبَطين، يغمرهم إحساس قاتل بالمهانة والخيبة والعجز، حينذاك مر الأبنودي الكبير قادمًا من الحقول وسأل القوم وعرف ما جرى، فخلع جلبابه، وصار بصديريته وسرواله الطويل، ونزل إلى قاع الساقية الموحش البارد الذي تسكنه عفاريت الأساطير.

هناك صار وحيدًا، يغمره الماء البارد إلى قُرب الرقبة، وظل يدور حول الترس ليختار أنسب وضع للتعامل معه، ثم "نَتَع التِّرْس" كأن ألف رجل كانوا في قاع الساقية، وسحبت القرية كلها الترس من فوق الأبنودي الكبير الذي ظل يحمله بمفرده على كتفه من قاع الساقية حتى خرج به سالمًا إلى سطح الأرض، ومشى إلى مساحة خالية وألقى به أمام الجميع ونفض يديه.

فجأة، أفاقوا من ذهولهم فهلَّل الرجال في ما يشبه الجنون وزغردت النساء وعمَّ جو من الفرح الأسطوري، أما هو فقد ستر جسده المبلل بثوبه، وهتف: "إيه عَ نخدم في ساجية يهودي؟ حتى مافيش كوباية شاي؟"!

من يومها صارت في أبنود قبيلة "التروسة"، وصار الأبنودي الكبير زعيم التروسة وحامل ترسها الأعظم.

ويعلِّق الخال الأبنودي ساخرًا: بيني وبينك كلما نظرت الآن إلى أبناء وبنات "التروسة" لا أجد ما يدل على أنه كان لنا جَدّ على تلك الهيئة الرهيبة من الضخامة والجسامة والشهامة والمهابة والقوة، لو كان الله أعطاني الفحولة الهائلة وضخامة البدن التي وهبها لحامل الترس الأعظم، زعيم التروسة، جدي الأعظم، لما كنت ارتميت على صدر الشعر الذي أُمُّه الرِّقة وأبوه الرغبة في الدفاع عن النفس.

لكن مثلما اشتهر الأبنودي الكبير زعيم "التروسة" بالقوة الهائلة، اشتهر أحمد عبد الوهاب، جد الأبنودي، بالقسوة المفرطة، فلم يرَه أحد مبتسمًا قطّ طوال حياته، بشهادة أهل القرية جميعًا!

ويفسِّر الخال سر قسوة جده قائلا: الحياة القاسية التي كان هذا البيت الكبير يحياها، هذا البيت الذي يغصّ بنساء لا يعملن، وينتظرن اللقمة التي يأتي بها الرجال، وإلا مُتْنَ جوعًا تحت أقدام الحياة القاسية، والأرض التي إذا رَقَدْتَ عليها نامت قدماك في إرث عائلة أخرى.

كانت إمكانيات الواقع شديدة الشُّحّ، ليس بها جديد أو رزق مفاجئ، لذلك فإن نقص عمل رجل واحد في البيت كفيل بقتل امرأة أو طفل أو أكثر، فالأفواه مفتوحة والبطون ضامرة وقوانين الحياة ثابتة لا يمكن تغييرها.

لذلك كان بدهيًّا أن تغيب الابتسامة عن وجه جد الخال طوال حياته، وأن يعيش نموذجًا للرجل الذي يحمل "غضب الله"؛ لذلك فإن التعليم كان بالنسبة إليه بمثابة رفاهية لا يحققها الفقر المدقع، ولكي تتم فسوف

تكون ضحيتها أفواه وبطون، علاوة على أن زوجته ـ أي جدة الخال ـ كانت قعيدة، لكنها كانت أقوى من الأحياء، فرغم الكُساح وقلة الحيلة لم تكن تتمنى الموت كما كان يفعل نساء أصغر منها بكثير!

هذه الظروف مجتمعة هي التي خشَّبت وجه جد عبد الرحمن.

ولكن على النقيض من الجد جاء الأب!

فقد كان الشيخ محمود ـ والد عبد الرحمن ـ محبًّا للعلم بصورة لا سبيل لكبح جماحها، فكان يهرب من "طاحونة قلادة" ـ التي يعمل بها مع إخوته ـ إلى كُتَّاب الشيخ علي الكريتي، وعرف إخوته عنه عشقه للعلم فكانوا "يدارون" عليه ويقومون بعمله بدلًا عنه، إلى أن كشفه أبوه (جد الأبنودي) وعرف بأمر تركْه الطاحونة والهرب إلى الكُتَّاب.

كان الأبنودي الكبير يأتي كل يوم إلى الطاحونة، ويجد أبناءه: مصطفى، وعلي، ومحمد، ولا يجد محمود، فكان ودون أن ينطق بكلمة واحدة يترك الطاحونة ويخبُّ في جلبابه مهرولا نحو كُتَّاب الشيخ علي الكريتي.

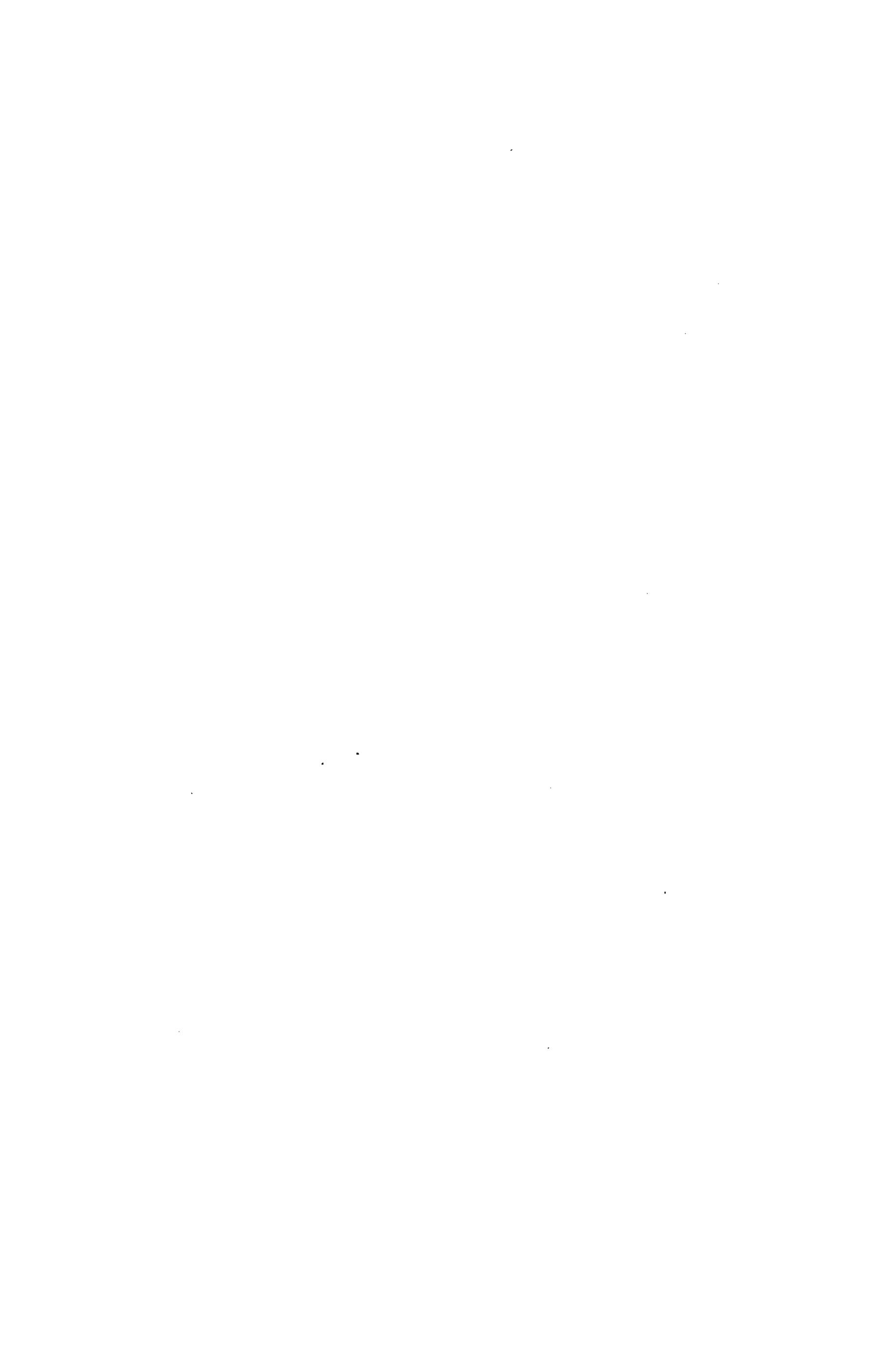
ويطل من باب الكُتَّاب فيجد محمود بين أقرانه معه لوحه ودواته يكتب أو يسمع للشيخ الكريتي، فيدخل والده دون استئذان، مغلَق الوجه كأنه خزانة علاها الصدأ.

يمد يده ليقبض على "محمود" ويجرّه خلفه على تراب الدروب المُلهِب من الكُتَّاب إلى الطاحونة، وعند بابها يميل ليلتقطه، ويلقي به إلى قلب "طاحونة قلادة" بلا رحمة.

لذلك صار منظر جد الأبنودي، وهو يسحب ابنه "محمود" على تراب الدروب من الكُتَّاب إلى الطاحونة منظرًا يوميًّا جعل "أبنود" تحب نضاله

وقوة تحمله، فأطلقوا على "الشيخ محمود" لقب "الأبنودي"، أي أول مَن تعلَّم من هذه القرية ونال مناصب على الرغم من كل ما جرى له ومعه وفيه!

لقد عانى الشيخ محمود كثيرًا، ولم يجرؤ واحد من أهل القرية على مناقشة والده الذي كان لا يؤمن بالحواديت والأقوال، ولا يحضر أفراحًا قطّ!



إنْ كبر ابنك تجنَّبه!

كان أفضل ما فعله الشيخ محمود الأبنودي هو أنه ترك ابنه ومضى!

فلم يكن الابن مغرمًا بعالم أبيه، بل كان عاشقًا لعالم أمه التي تحملت وحدها عناء تربيته، فصار مدينًا لها بكل ما وصل إليه.

فالشيخ الأبنودي لم يضبطه أحد من أبنائه مبتسما داخل البيت، ولولا أنْ رآه البعض خلسة وهو يبتسم بين أصدقائه لظن الجميع أنه صورة من والده "أحمد عبد الوهاب" الذي لم يلمحه أحد مبتسمًا طوال حياته المديدة بشهادة أهل القرية أجمعين.

وقد سار ابنه "محمود" على درب أبيه؛ فقد كان حريصا على تأكيد المسافة بينه وبين أبنائه لدرجة أنهم كانوا يتساءلون إذا ما كان والدهم يريدهم فعلا، وكانوا يتعجبون من رجل ينجب كل هؤلاء البشر، ولا يتبادل معهم الحوار إلا للضرورة المُلِحَّة.

لم يكن يُرضي الوالد ذهاب أولاده إلى المولد، لم يكن يرضيه لعب الكرة أمام البيت، لم يكن يرضيه وجودهم في البيت، حتى ظن "عبد الرحمن" وإخوته أن والدهم لم يكن يريد وجودهم في الحياة من الأساس.

ولم يكن يُظهر فرحه بنجاح أولاده، وإنما كان يقول "أمال كنتم عايزين تسقطوا؟" هذه هي طريقته في السرور والمرح أمامهم.

كان الشيخ الأبنودي لا يضحك أبدًا في وجود أولاده.

كان يحاول أن يكتم الضحك بقسوة، كأنه يحتفظ لنفسه بحكمة يؤمن بها وحده وهي "إنْ كبر ابنك تجنَّبه"!

لكنه كان يضحك مع أقرانه بعيدًا عن المنزل، حين يجلس معهم على "دكة" أمام دكان "محمود الحلوي" كانوا يضحكون، ويتفكهون، ويقهقهون بصوت عالٍ، ومعظم هذه الضحكات كان الشيخ الأبنودي هو الذي يُفجّرها.

لكن هذا الاكتشاف وقع أمام ابنه "عبد الرحمن" بطريق الصدفة، وتكرر أكثر من مرة.

وذلك حين كان يذهب إليه مضطرا لإخباره بشيء مهمّ، أو محتاجًا إليه بصورة ماسَّة حينها كان يسمع ضحكاته تجلجل من بعيد، لكن ما إن يلمح ابنه قادمًا من خلف الجدار الكبير الذي يواريهم عن خلق الله حتى يمد كفه العريضة على وجهه، ويمر بها من أعلى إلى أسفل فيكشط الابتسامة ويعيد إلى وجهه اللون القديم.

نون التجهم والجدية والإرادة والتحدي.

ويعلّق الخال الأبنودي على تلك الواقعة بقوله: ربما هذا هو الذي

أدى بنا جميعا ـ كل أولاده رحمه الله ـ إلى أن يملؤوا بيوتهم ضحكًا وبهجة طوال اليوم.

لكن يمكن أن نضع كل ما فعله الشيخ الأبنودي في كفة وصلاته الجمعة بالمساجين في ليمان قنا العمومي في كفة أخرى.

اختار الشيخ محمود الأبنودي مسجد سجن قنا لصلاة الجمعة، وكان يؤمن بأن شحن قلوب المساجين بالصبر على زمنهم البطيء، وتزويد قلوبهم بالإيمان والتسامح لا شك أن ثوابه عند الله أكبر بكثير من هداية الأحرار خارج القضبان.

ليس مَن يحيا خارج السجن كمن هو داخله.

إن السجين يظل يفكر في الانتقام ممن وَشَوا به أو زجُّوا به إلى هذا المأزق الذي لا يبدو أن لزمنه نهاية.

كانت مهمة الشيخ الأبنودي هي شحن هؤلاء اليائسين البائسين بمدد من الصبر وزاد من الإيمان لنسيان تلك الأفكار السوداء.

هذا من جانب، من الجانب الآخر فإنه كان يعرف معظم المساجين القادمين إلى السجن من قنا وقُراها، فقد كان الشيخ "مأذون بندر قنا"، زوَّج الجميع، وطلَّق أصحاب الحالات التي تعقَّدت، ويعرف الخرائط الاجتماعية المتشابكة للقبائل والعائلات، وبالتالي فإنه يعرف الملابسات والظروف االتي أدت بالسجين إلى أن يُزجَّ به إلى خلف هذه القضبان التي تطل عليه وهو يعظ؛ لذلك فإنه رفض مرارا تعيينه في المسجد الكبير، مؤمنًا بأن خدمة المساجين أهم ألف مرة من خدمة السائبين.

كان الشيخ محمود يخاطبهم في ما يعرف جيدا أنهم في حاجة إليه.

كان الرجل ذكيًّا ذا بصيرة وخبير بسجنائه، ويدرك أنه يؤدي رسالة حقيقية لدرجة أنه كان يقوم بنقل الرسائل بين المسجون وذويه لإبلاغهم بضائقته المالية أو يقترح عليهم رهن كذا أو بيع كذا.

كانت الرسائل شفهية أحيانا ومكتوبة أحيانًا.

لم تكن أمور المراسلة في السجون سهلة، فكان الشيخ يسهِّلها وكان دائمًا يقول لأبنائه: "ليس لكم أن تسألوا عن إصراري على الخطبة في المساجين يوم الجمعة وعدم قبول الخطبة في المسجد الأكبر في مصلين مستحمِّين متعطرين مزهري الملابس، أما سجنائي فإنكم إذا كنتم موفَّقين في الدراسة والحياة فبسببهم أنتم أهل مظاهر، لا تفكرون في غيركم خصوصًا إذا ما كان في ضائقة".

هذا عن صلاة الجمعة وخطبتها في "ليمان قنا العمومي"، أما عن بقية المواقيت في الأيام العادية، فقد كان الشيخ يؤديها حينًا في المسجد الكبير وأحيانا أخرى في مسجد "الحلوي"؛ لذلك حين يأخذون خبرًا بأن الشيخ محمود سيصلِّي بهم التراويح أو سوف يلقي عظة قبل صلاة يهرولون ويملؤون المسجد.

فقد كان صوته رخيمًا به غُنَّة وأصداء، وكان القلب يرتعش حين يستمع إليه ـ على وصف الخال الأبنودي ـ فلم يكن يهدد المصلين بجهنم وبئس المصير، ولم يكن يتوعدهم بكل عقاب أليم، وإنما كنت تحب أن تستمع إليه، فتكتشف أن الإسلام دين السماحة والحق والعدل، وأن أبواب التوبة لا تُغلَق أبدًا، وكيف تغلَق أبواب الغفور الرحيم؟!

كان صوته في الخطابة رنانًّا ذا أصداف وأمواج، وكانت قراءته القرآن وترتيله كالتغريد الغنيّ بإيمان عميق وتصديق حقيقي.

لم يكن الشيخ الأبنودي بمفرده الذي يتمتع بتلك الصفات بل كان أغلب الخطباء آنذاك يتمتعون بنفس السمات.

لكن الشيخ الأبنودي كان يتميز بكونه شاعرًا، وله دواوين شعرية، منها بُردة "منحة المنان في مدح سيد الأكوان" ـ وهي على غرار بردة الإمام البوصيري ـ و"ألفية في الشعر" ـ على نسق ألفية الإمام مالك ـ هذا بجانب أنه أستاذ لغة عربية خرج من تحت يده أساتذة كبار، فصار عالم أبنود الأول وشيخها الأهمّ.

لم يَرِث عبد الرحمن من والده سوى حبه للشعر، لكن حين كتب الابن ديوانه الأول فى دفتر خاص يشبه بشدة دفاتر التموين مزَّقه الأب، ورأى أنه لا يمُتّ إلى الشعر بِصِلَة؛ لأن ولده لم يَسِر على نهجه، ولم يكن مقلدا له، وإنما جاء مجدِّدًا، ومختلفا، ومخالفا لما يريده، وينتظره الشيخ الأبنودي.

لكنه تأثير فاطمة قنديل.

فقد تحملت وحدها عناء تربية "عبد الرحمن" حين نسيها زوجها، وترك ابنه لحظة صعوده، كأن القدر أراد أن يتغير مصير هذا الطفل عن سائر إخوته، لينشأ في عالم فاطمة قنديل وأمها ست أبوها حيث حب الحياة والناس والخيال!

و"فاطمة" امرأة زادها الخيال؛ لذلك فهي تُعَدّ المدرسة الأولى التي تعلم فيها "عبد الرحمن الأبنودي" فن الحَكْي، فبفضل قصصها نما خياله، وزاد حبه للناس والفن بكل أشكاله، فالناس كانوا يتغنون بالحكايات والقصص في ليل الشتاء، ويرددون ما لا يستطيعون قوله إلا في الغناء.

ما زال "الخال الأبنودي" يتذكر تلك الليالي، وتلك الأغاني، بل إن

بعضها ما زال يرويه كأنه قد سمعه بالأمس، بل إنه ما زال يذكر تفاصيل أول قصة حكتها له أمه وهي قصة "بيض الحَبَل"!

القصة أن رجلًا وامرأة من بسطاء الخلق طال بهما عمر الزواج، ولم يتحقق حلمهما بإنجاب طفل، وكانا بالطبع حزينين لذلك أشد الحزن.

يخرج الرجل إلى الحقل في الصباح ليعود مساءً، أما زوجته فإنها تكنس البيت وتملأ الجِرار من النهر وتخبز "العيش" وتعد طعام الرجل العائد بعد يوم عمل شاقّ.

في ذلك اليوم وهي بمفردها سمعت صوت ذلك البائع الذي ينادي: "بيض الحَبَل يا بنات.. بيض الحَبَل يا اللي عاوزة تخلِّفي"، فتحتْ الباب: "ماذا تبيع؟" فأجابها: "بيض الحَبَل" وشرح لها طريقة السلق والأكل.

اشترت المرأة ثلاث بيضات، سَلَقَتْها في الحال، ولأنها كانت متعجلة لأداء واجب عزاء فقد وضعتها تحت "ماجور" مقلوب كي لا تصل إليها قطة أو ثعبان، وتأخرت في مشوارها لسبب أو لآخر ليعود الرجل باحثًا عن شيء يأكله فلم يجد، وحين رفع "الماجور" الفخاري وجد البيضات فاعتقد أن الزوجة تركتها له فالتهمها!

حين عادت المرأة وعرفت بالأمر خبطت على صدرها، وأخبرت زوجها بحكاية الرجل الذي يبيع "بيض الحَبَل" وتمنت أن يكون نصَّابًا كذابًا وطمأنت نفسها وطمأنته بأن الرجال لا يحبلون.

لكن وبمرور الشهور، بدأ بطن الرجل يعلو ويعلو وظهرت عليه آيات "الوَحَم" فاحتجب في الدار خجلا وخوفًا من كلام الناس الذين صاروا يترددون على بيته يسألون لماذا لم يَسْقِ زرعه فيدَّعي المرض فيسقون له الزرع، لماذا لم يحصد؟ لأنه مريض، فيحصدون ويأتون بالمحصول إلى

البيت، إلى أن جاءه "الطَّلْق" فنصحته زوجته بأن يذهب إلى أطراف البلدة في حقل الذُّرة العالية فذهب وغاب وعاد.

سألته الزوجة عما حدث، فأجابها بأنه أنجب بنتا جميلة كالقمر، لمست خده كأنها تبتسم.

حنَّت الزوجة ورقَّ قلبها وأمرته بأن يذهب ليأتي بها، وذهب فلم يجدها، لم يكن يدري أن حدأة تسكن نخلة عالية قد سبقته إليها وأسكنتها قلب النخلة التي لا يستطيع صعودها أحد، وراحت الحدأة كلما رأت ملابس جميلة أو ذهبًا اختطفته وألبستها إياها حتى كستها ذهبًا فكبرت البنت وصارت فتاة رائعة الجمال.

وحين مر "الشاطر حسن" وقرر أن يسقي حصانه من ماء السبيل تعجب من حصانه الذي ما إن يقترب ليشرب حتى يجمح ويصهل بجنون.

نظر الشاطر حسن إلى الماء ففوجئ بذلك التوهج العجيب الذي يتراقص في الماء فيفزع حصانه وحين رفع عينيه إلى أعلى وجد الفتاة الجميلة، وعرف أن الوهج من انعكاس أشعة الشمس على الذهب، فحاول إنزالها بالمحايلة فلم تستجب، فذهب إلى "أم العجوز" وكانت داهية استطاعت بحيلها أن تزوّجها للشاطر حسن!

ورث الأبنودي من أمه حب الحكْي، والغناء، والناس، لكن أهم ما ورثه منها هو نظرتها الثاقبة، التي أتت لها عبر خبرتها في الحياة لذلك حين رأت "نهال كمال" لأول مرة قالت لعبد الرحمن: "دي هتبقى أم عيالك"!

ولكن لهذا قصة مدهشة.



نهال وآية ونور

اللقاء الأول

في الإسكندرية، يومها دعتها ابنة خالتها لأمسية يُلقي فيها عبد الرحمن الأبنودي أشعاره.

لم تكن نهال قد رأته من قبل أو قرأت له أو عنه، كانت فقط تعرفه من أغاني محمد رشدي التي تذاع في الراديو، لكنها وافقت على الذهاب للأمسية والاستماع إليه، لكن بمجرد أن سمعت قصائده تعلقت بها، وعاشت معها، ومنها "جوابات حراجي القط" و"الخواجة لامبو".

وعادت نهال إلى البيت، وهي تشعر بأنها في حاجة إلى أن تعرف هذا الشاعر عن قُرب، فبدأت تقرأ أعماله، وتبحث عنه، وتشتري دواوينه، ومرت سنوات وتخرجت نهال كمال في الجامعة، وعادت مع والدها إلى

القاهرة بعد أن ترقّى وصار رئيسًا لشركة بتروجت، وعملت في الإذاعة ثم في التليفزيون.

اللقاء الثاني

كان أول برنامج تقدمه "نهال كمال" على الشاشة الصغيرة برنامج عن الشباب، ففكرتْ أن تُعدّ حلقات تصنع فيها مزيجًا بين أجيال الشعراء الشباب والشعراء الكبار، وتسجل تعليق الشعراء الكبار على الشعراء الجدد، واستضافت حينها مجموعة من الشعراء الشباب، وقررت في حلقات الشعر العامّي أن يكون عبد الرحمن الأبنودي ضيفها.

وكانت البداية!

فقد جاء إليها وجلسا معًا، بعدها صارت تستشيره في بعض أمورها، وتستعير منه بعض الكتب، وأهداها ديوانه "الفصول".

بعدها صارا صديقين، يلتقيان من حين لآخر، ويتحدثان بصورة منتظمة، وكان دائم النُّصح لها، بل إنه كان يعتبرها بنتًا له.

لكن حدث ما قلب موازين تلك العلاقة!

فجأة مَرِض الخال، وسافر إلى الاتحاد السوفيتي للعلاج، وغاب هناك، وعندما وصل إلى القاهرة، وجد "نهال" تنتظره، وتسأل فى التليفون عنه بحرارة - على حد تعبيره - وسألته عن صحته وأحواله باهتمام كبير، حتى لمس كلامها قلبه، لكنه كذَّب نفسه، فهي أصغر منه بسنوات طويلة، وتربَّت بصورة مختلفة، وعاشت حياة مرفهة على عكسه تمامًا.

لكن لم يمنع الأبنودي نفسه من الإعجاب بها، والسؤال عنها،

وحكى لها عن أمه ـ أشهر أم في مصر ـ "فاطمة قنديل" وأخبرها أنها في القاهرة فطلبت أن تراها، فأعطى لها العنوان، واتفقا على الموعد، وذهبت في الميعاد، وجلست مع والدته لكنها لم تجده، ولم يتذكر موعدها!

يومها، عاد إلى البيت متأخرا، بعد يوم عمل شاق في أغاني مسلسل "أبو العلا البشري" وفيلم "البريء"، وعندما رأته "فاطمة قنديل" أخبرته أن "نهال" جلست معها طوال النهار، وأنها جوهرة حقيقية ثم فاجأته "فاطمة قنديل" وقالت: بنت كويسة ومتربية، خدها يا وليدي، اتجوزها.

عبد الرحمن: "يامّة انتي اتجنّيتي دا أنا قدّ أبوها".

فاطمة: "بَلا أبوها بلا أخوها، أنا أخدني أبوك وأنا عيّلة مش شايفة الدنيا، وهو زي النخلة، وخلّفتكم ومَليت الدنيا".

عبد الرحمن: "يا أمي دي بنت ناس غيرنا خالص".

فاطمة "بحسم": "بتحبك صُح الصُّح.. وحياة فاطنة قنديل دي أم عيالك"!!

وفي اليوم التالي، اتصلَت نهال، وتحدّثا بودّ أكثر مما كان بينهما، وقالت نهال: أمك ست ظريفة.

وردّ الأبنودي: "هاروّحها".

نهال: ليه؟

الأبنودي: "بتقوللي أتجوزك!".

فصمتت نهال، وأغلقا الهاتف، لكن بعد مرور أيام قلائل، عاودت الاتصال بالخال، وبدأت العلاقة بينهما تأخذ منحىً آخر تماما بخلاف الذي بدأت به، وتعلّقا كلاهما بالآخر أكثر، واتفقا على كل شيء.

وبدأت ماكينة الشائعات تنطلق ضدهما، فادَّعى البعض أنها أزمة منتصف العمر عند الأبنودي، وأنها نزوة وستنتهي، والبعض قال "إيه اللي لَمّ الشامي عَ المغربِي" خصوصًا أن "نهال" في ذلك الوقت كانت تقدم برامج خفيفة لا يظهر فيها عمقها وذكاؤها بقدر ما يظهر رقتها وجمالها.

لكنهما اتخذا القرار، فحبهما كان أكبر من أى شيء، وكل شيء، فتحدَّيَا الجميع، وتزوجا في ٢ مارس عام ١٩٨٧.

كان زواج عبد الرحمن الأبنودي من نهال كمال بمثابة صدمة لكثيرين، وصار حديث الصباح والمساء والصحافة والإعلام، وتأثرت نهال، وصدر قرار بإبعادها عن البرامج المهمة داخل التليفزيون، وتهميش دورها بسبب زواجها من الأبنودي.

لم يكن قرار زواجهما واستمرار العلاقة بينهما سهلا على الطرفين، فكلاهما تعرض لضغوط كبيرة، لكنهما تغلبا على تلك الضغوط، سواء من الناس والمجتمع أو من الأصدقاء والأقارب، لكن أهم شيء تغلبا عليه كان هو وضع منهج حياة يلائم الاثنين، فكلاهما تربَّى بصورة مختلفة، فالخال تربَّى بين فقراء أبنود، واعتاد على طريقة حياة صاخبة عاشها لسنوات طويلة، يُدخِّن في أي وقت، يتحدث كيفما يشاء، بينما "نهال" جميلة، مُرفهة، كأنها قطرة ندى قادمة من سحاب بعيد ـ على حد تعبير الخال ـ وقد تربت في بيت كل شيء فيه يحدث بحساب، الأكل، الشرب، النوم، الكلام.

لكن كلاهما تعوَّد على الآخَر وتعلم من الآخَر، وتوثقت بينهما الصلات، ونما الحب في قلبيهما بعد أن أنجبا "آية" ثم "نور" وشعرا بأنهما قد ملأتا الدنيا عليهما نورًا.

لكن الشاعر عبد الرحمن الأبنودي لم يستطع أن يكتب قصيدة شعر كاملة في حبيبته "نهال" لكنه في أثناء معركتهما التي خاضاها ضد الحاقدين والحاسدين من "العُزال" كتب مدافعا عن حبه لها، وروى مشاعره، وعبّر عن أحساسيه شعرًا في أغنية "قبل النهارده" ثم "طبعًا أحباب" اللتين غنَّتهما وردة ولحّنهما عمار الشريعي، لكن لم تُغنَّ كاملة، رغم أنها حملت قصة حبه كاملة:

ما انتش محتاج ولا نيش محتاجة تقولِّي وأقولَّك يا حبيبي

ما انت حبيبي

ما انت حبيبي وانا حبيبك وانا وانت عارفين يا حبيبي

أيوه حبيبي

حنقولها عشان الناس تعرف

طب يعرفوا ليه؟

يعني لو عرفوا ده ينفعنا

يا حبيبي بإيه؟

حَيْخَلُّونا أسْعَد ما احنا وياهم حاجه تفرحنا

حَيْقرَّبُوا نجم الليل سِنَّه ويعلُّوا الضِّحكه فْ أفراحنا؟

أبدًا أبدًا

خالص خالص!!

الفصل الثالث

المشروع والممنوع

هذا أوان الأونطة

والفهلوه والشنطة

تعرف تقول جود نايت

وتفتح السمسونايت

وتبتسم بالدولار..؟

تقفل بِيبان الوطن

وتقول بتفتحها..؟

وترمي مفتاحها..؟

وتبيع في أمك وأبوك..؟

٦ أَشْهُر سجنًا

في عام ١٩٥٤ ذهب مجلس قيادة الثورة بأكمله إلى مدينة قنا لمواساة أهلها، ولمواجهة الكارثة التي حدثت هناك.

فالسيول دمَّرت المدينة، لدرجة جعلت التلاميذ يذهبون إلى المدارس على قوارب صنعوها من جذوع النخيل.

يومها كان البلد بكامله في استقبال الضيوف من سياسيين وفنانين كبار حضروا لمساندة أهالي قنا.

وكان عبد الرحمن يقف مع زميله في المدرسة جمال نصاري، فقال له: "مش الراجل اللي هناك دا شبه جمال عبد الناصر اللي في الصورة؟"، فقال له: "باينّه هو".

فذهب الاثنان، ووقف عبد الرحمن أمام عبد الناصر وقال له: "أنت جمال عبد الناصر؟"، فرد عليه: "أيوه"، فقال له الخال: "ممكن أسلم

عليك؟"، فسلم عليه، ونظر إليه نظرة ما زالت محفورة في ذاكرة الخال حتى الآن، لدرجة أنه يقول إنها كانت السبب في قصيدة عبد الناصر التي كتبها في ما بعد.

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأى فيها عبد الرحمن الأبنودي، جمال عبد الناصر وجهًا لوجه.

المدهش أن الأبنودي لم يكن مناصرا لعبد الناصر بل كان معارضًا له حتى رحل فصار من أشد مؤيديه، بل ومن أكثر المدافعين عنه، والمؤمنين بما فعله رغم أنه دخل السجن في عصره، ومكث فيه ستة أشهر.

ففي أكتوبر ١٩٦٦ اقتحم ضباط المباحث منزل الخال عبد الرحمن الأبنودي، وتم إلقاء القبض عليه، ومصادرة كل أوراقه، وعصْب عينيه بقطعة من قماش وأخذوه إلى إحدى جهات التحقيق.

وفى أثناء سيره في الطريق إلى المعتقل ظلوا يضربونه بـ"الشلوت" وعلى رأسه حتى وصل إلى مكتب المحقق وهو لا يستطيع الوقوف على قدمه.

وأجرى تحقيقًا صوريًا.

وبعد انتهاء التحقيق معه مكث ٣٦ يومًا في سجن انفرادي في القلعة، بلا أي شيء، لا جورنال، ولا ورقة، ولا يرى سوى بُقعة ضوء تأتي إليه في كل صباح من نافذة الزنزانة، ويظل يلاعبها إلى أن تبهت، وتختفي.

لم يكن الأبنودي وحده الذي دخل سجن عبد الناصر في هذا التوقيت.

فقد سبقته قائمة طويلة من المثقفين، ودخل معه السجن عدد كبير من أصدقائه المقربين، من بينهم جمال الغيطاني وسيد خميس وصلاح عيسى وسيد حجاب لكن كان من غير المسموح أن يجلسوا معًا، أو يتحدثوا

معًا، لكن الخال كان يحاول أن يُسقط جدار الزنزانة بصوته، فكان يقضي يومه في الغناء داخل الزنزانة ليسمعه أصدقاؤه ويقوِّي من عزائمهم، ولعل أكثر أغنية كان يرددها هي "عم بضوي الشمس" للسيدة فيروز.

وعندما كان يمر "عم سيد" حارس الزنزانة، يقول ضاحكًا: "أهي دنيا بتلعب بينا.. على رأي الأبنودي"!

لكن كان يرد عليه الخال من خلف باب الزنزانة ويقول له: "مش أنا يا عم سيد اللي كتبتها"، فيردّ مندهشًا: "أُمَّال همَّا جابوك هنا ليه؟!".

السجن لم يجعل الأبنودي يفقد صوابه مثل كثيرين، ولم يجعله يكره سجَّانه.

ظل متصالحًا مع هذه التجربة بل يرى أنها تجربة كان لا بد منها حتى يكتمل البناء الشعري له، فهو يرى أن الشاعر الحق لا بد أن يمر بثلاث تجارب رئيسية: أن يعيش أجواء الحرب، وأن يدخل السجن، وأن يأنس بالحب، وقد مر بالثلاث.

لكن تجربة السجن تركت في الخال أثرًا مدهشًا يقول عنه: "كان حائط السجن مثل كرسيّ الاعتراف، إذا أردت أن تعرف نفسك جيدا، اسند ظهرك إلى حائط السجن، هتعرف قد إيه شجاع أو قد إيه جبان، وبتخاف من إيه وبتخاف على إيه، ودرجة صمودك قد إيه، وكيف تري الناس حولك".

الأبنودي اقترب من الجميع خلال شهور السجن.

كان يستمع إلى محمد عبد الغفار، عامل النسيج، الذي لم تكن له أمنية سوى أن يخرج من السجن ويأكل كيلو كباب مع زوجته، وكان يضحك

مع عم سيد حارس الزنزانة، ويجلس مع الوفديين الذين هتفوا ضد عبد الناصر في جنازة مصطفى النحاس، فسجنهم رجال عبد الناصر، وكان من بينهم ياسين سراج الدين ومصطفى ناجي.

وكذلك كان يأتي إليه بعض شباب وشيوخ الإخوان ويجلسون معه، بل كانوا يتسلقون على أكتاف بعض داخل الزنزانة حتى يستطيعوا إلقاء السجائر له ـ التي كان يتم تقطيعها ثلاث قطع كي تستمر أطول فترة ممكنة ـ خصوصًا بعد أن صار قريبًا من شيخهم محمود شاكر ويتحدث معه بالساعات.

وفي أثناء فترة السجن كتب عبد الرحمن الأبنودي الجزء الثاني من ملحمة "أحمد سماعين"، وقد ساعده في ذلك أحد المعتقلين من الإخوان عندما سرَّب إليه "ورق بَفرا" و"قلم كوبيا" وسجائر، وقد اشترط الخال أن يحصل على سيجارة إضافية فوق سيجارتيه من أجل كتابة هذه القصيدة.

وذلك قبل أن يتم السماح بدخول السجائر التي كان يرسلها إليه عبد الحليم حافظ، علاوة على السجائر التي كانت تأتي بها "آمال تحيمر" زوجة بليغ حمدي التي كانت تذهب وتتوسل إلى المباحث من أجل أن يسمحوا بدخول السجائر إلى زنزانة الأبنودي.

وقد شارك الأبنودي في الحبس واحدًا من أكثر المثقفين نضالًا، وهو "غالب هلسا" المثقف الأردني الكبير الذي تعرض للسجن في عدد كبير من الدول العربية، وكانت زنزانته مقابلة لزنزانة الخال في القلعة، وكان الاثنان صديقين حميمين لا يفترقان طوال فترة الاعتقال لدرجة أن "غالب هلسا" كتب مقالا بعد خروجه من السجن، وقال فيه:

"اللي ماتسجنش مع الأبنودي مايعرفش حلاوة السجن".

ويعلق الخال: من هنا تذكرت هذه اللحظة حين جاءت قصيدة "ضحكة المساجين".

لكن السؤال: لماذا تم اعتقال عبد الرحمن الأبنودي؟

والجواب يرويه الخال بقوله: كنت في منظمة سياسية، وأبلغ عني المسؤول السياسي في المنظمة، وكان اسمها "و-ش" أي وحدة الشيوعيين، وكانت تتكون من مجموعة من المناضلين وقتها، كان من بينهم جمال الغيطاني ومحمد العزبي وجلال السيد وعلي الشوباشي، ولم تكن منظمة حقيقية، ولم يكن لها أهداف واضحة، وقد تكونت بالجهود الذاتية، وكانت رسوم الاشتراك ٢٥ قرشًا، وكانت أشبه بـ"تعليم الماركسية بالأجر"، ولكن بعد هذه التجربة قررتُ أن أكوِّن حزبًا بمفردي.

ويعلّق الخال ساخرًا: "هو في حد عاقل يروح يجيب لنفسه رئيس.. إذا كان رئيس الوحدة اللي كنت فيها طلع هو اللي مبلّغ عني مباحث الأمن!".

لكن صدر القرار بالإفراج عن الأبنودي ورفاقه بناءً على طلب المفكر "جان بول سارتر" الذي رفض الحضور لمصر بسبب اعتقال مجموعة من المثقفين، واشترط أن يتم الإفراج عنهم قبل حضوره إلى القاهرة.

لكن عبد الناصر وافق بشرط.

وهو أن يأتي "سارتر" أولًا إلى مصر، وبعد أن يصعد إلى طائرته، يتم الإفراج عن جميع المثقفين.

رغم كل ما حدث، فإن الخال الأبنودي صار ناصريًّا أكثر من

الناصريين أنفسهم ولكن بعد رحيل عبد الناصر بسنوات طويلة، وعندما سألتُه عن أسباب ذلك التحول الكبير مع الرجل الذي انتقده حيًّا ومدَحه ميِّتًا قال: "بعد ما قلّبت في وشوش اللي حكمونا بعده أدركت أني لم أعطِ للرجل حقه".

ويفسر الخال كلامه قائلًا: "في أبنود لم نشعر بما فعله عبد الناصر، فلم يكن لدينا إقطاعيات حتى نعرف فضل عبد الناصر الكبير على الفلاحين، فالوادي ضيق، والجبلان ضاغطان على النيل، والمساحة الخضراء ضيقة جدًّا، فعندما وزَّع عبد الناصر الأرض على الفلاحين لم تستفد أبنود بشيء، وأنا وأهلي لم نستفد بشيء، ولم يتغير سوى أن الطبيب أصبح فى القرية على بعد أمتار من الوحدة الصحية.

لكن عندما جاء السادات ومبارك ثم وصلنا إلى مرسي أصبح لزامًا عليَّ أن أتذكر عبد الناصر للأجيال التي لوثوا لها وجه عبد الناصر ـ والكلام لا يزال على لسان الخال ـ فهو بطل شعبي مثل أبو زيد الهلالي".

ويواصل الأبنودي: "خلافي مع عبد الناصر لا يجعلني أنكر نضاله العظيم ضد الصهيونية، ومعركته الخالدة في بناء السد العالي، ووقوفه أمام القوى الاستعمارية علاوة على انحيازه إلى الفقراء؛ فقد صنع عبد الناصر ما لم يصنعه حاكم عربي آخر، فهو مزيج بين فكر ورؤية محمد علي، وثورية أحمد عرابي، وزعامة سعد زغلول، ومحبة مصطفى النحاس، لكن الظروف العالمية وقفت ضده وأجهضت مشروعه. لكن عيب عبد الناصر الكبير والقاتل ـ والكلام ما زال على لسان الأبنودي ـ أنه كان يحب الجماهير، ولكنه لا يؤمن بهم، بمعنى أنه قاتَل من أجل الجماهير لكن لم يكن يوافق على أن يجعلها تتحرك، وتقوم بالفعل الثوري، ولم يهتم بأن

يغرس في نفوس الناس قيمة الحفاظ على المشروع الوطني؛ لذلك جاء السادات وألغى التجربة الناصرية، لكن يكفي جمال عبد الناصر أنه خالد في قلوب البسطاء".

ويعود الأبنودي بذاكرته إلى ما بعد النكسة، ويقول: ما زلتُ أذكر أنه في حرب الاستنزاف كنت أجلس مع عم إبراهيم أبو العيون نشرب الشاي في منزله بالسويس، وعم إبراهيم كان محبًّا لي، ولاعلاقة له بالسياسة مطلقًا.

لكنه سألني فجأة: "يا عبد الرحمن همّا حبسوك ليه؟".

قلت له: "الراجل اللي اسمه عبد الناصر...".

قال لي "بس.. اسكت.. كبرت ولبست قميص وبنطلون وتقول الراجل اللي اسمه عبد الناصر وأنت لولا الراجل اللي اسمه عبد الناصر كان زمانك بتلمّ الدود، بتقول الراجل اللي اسمه عبد الناصر.. هو فيه غير عبد الناصر في الدنيا كلها؟!".

ويعلّق الخال: الفلاحون لم يثقوا في "قميص وبنطلون" إلا قميص وبنطلون عبد الناصر، لذلك مدحْتُه بعد أكثر من ثلاثين عامًا على رحيله، وقلت:

.. والْف رحمه على اللي لِسَّه "قُلْنا وقال".

اللي مَضَى وذمِّته.. مَثَل جميل.. يتقال.

(ما هي ناذْره في مصر حاكم.. يطلع ابن حلال)

حاكم.. يِدادي الجميع.. ويبوسْ رقيق الحال.

وده عِشْقِتُه: فلاحين.. طلَبه.. جنود.. عُمّال.

وخاض معارك جِسام.. مين طلّع الاحتلال..؟

مين اللي صحَّى الشعوب.. تكسَّر الاغلال؟

ويْبُخُّوا أكاذيب في سيرتُه يسمِّموا الاجيال.

من بعد ما شفنا غيرُه.. فهمنا عهد جمال.

ياما انتصر.. ياما حَرَنِ المُهْر بالخيَّال.

هل كان وجوُده العظيم.. حقيقه والاّ خَيَال؟

أسطورة حية.. ما زالت عاصية عَ الموال!!

هذا أوان الأونطة!

بعد النكسة، بدأ الأبنودي رحلته الأهم في جمع السيرة الهلالية، ورغم كتابته أهم وأشهر أغاني تلك الفترة فإنه برحيل جمال عبد الناصر توقفت الأغاني، وركز الأبنودي جهوده في البحث عن كنز الهلالية، فجاب الوطن العربي باحثًا عنها.

لذلك عندما وقعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان الخال في إنجلترا بصحبة الأديب السوداني الطيب صالح، وعندما عرفا بالحرب وحاولا العودة إلى مصر عن طريق ليبيا لم تفلح المحاولة، فحُكم عليه أن يظل في بلاد الثلج والضباب، وأن يشاهد الحرب من وجهة نظر الأعداء.

ويروي الخال تفاصيل ما جرى هذه الفترة بقوله: "الإنجليز يتحدثون طوال الوقت باعتبارهم أنصار القضية الفلسطينية، لكن بمجرد أن قامت الحرب صاروا يهودًا أكثر من اليهود ذاتهم، وتبنوا موقف إسرائيل

في كل شيء، لكن الميزة الوحيدة أنني رأيت ما لم يره الشعب المصري، فقد شاهدت حرب الدبابات التي كان بطلها المصري العظيم عبد العاطي، صائد الدبابات وغيره، وأدركت أننا (دعكناهم) خصوصًا أن كل دبابة تخرج عندهم بكاميرا لتسجل تفاصيل المعارك، ظنًّا منهم أن الكاميرات ستسجل انتصارات مثلما فعلوا في أثناء حرب ٦٧، لكن هيهات!".

ويواصل الخال: عندما كنا نذهب إلى نادي الـ"بي بي سي" ونطلب الغداء، ونجلس على ترابيزة نجد أنفسنا محاطين بكراهية ليس لها حدود من الذين كانوا أصحابنا بالأمس، كل ذلك كان بسبب إسرائيل، فكانت تجربة مختلفة ومهمة.

لكن بعد مرور الأيام، وانتهاء الحرب، بدأت جيهان السادات تظهر في الصورة، وتتصدر المشهد بزياراتها لجرحَى الحرب، في هذا التوقيت اتصل المخرج الراحل محمد سالم بالأبنودي، وأبلغه أن حرم الرئيس تريد منه العودة إلى القاهرة، من أجل أن يقوم بإلقاء قصائده في احتفالات النصر.

لكن الأبنودي اعتذر.

وكانت لدى الخال دوافع كثيرة لعدم التفكير في العودة، منها أنه وجد صعوبة شديدة في الخروج من مصر قبل الحرب، وتم التضييق عليه بصورة كبيرة، وتم رفض سفره أكثر من مرة، علاوة على أن الحرب انتهت، وبالتالي لم يعد هناك ضرورة مُلحَّة لعودته ـ على حد تعبيره.

بعد ذلك قام الخال بتغيير محل إقامته، ورقم تليفونه، ولم يكن يعرف أحد طريقًا له سوى صديقه الطيب صالح.

لكن فجأة رنّ جرس الهاتف، ووجد أن المتحدث هو عبد الحليم حافظ، وكان يتصل به من لندن.

تعجب الخال وسأله: "أنت جبت نمرتي منين؟"، فضحك، وقال له: "يا نهارك أسود بقالك سنين ماشوفتنيش وأول حاجة تقولها لي جبت نمرتك منين.. أنت فاكر أن الدولة مش عارفة أنت فين؟ يعني علشان أنت في إنجلترا مش هنعرف أنت فين؟!".

وبعد حديث طويل في التليفون عن الصحة والأحوال قال حليم: "يرضيك يعني نعمل أغاني للنكسة ومانعملش أغاني للنصر... ماتخليهاش في تاريخك كده".

فردّ عليه الخال: "طيب خلاص، روح أنت وأنا جاي".

وبالفعل، عاد الأبنودي، لكن فور عودته حدث شيء غريب.

كانت هناك سيدة تسمَّى "أم صلاح" تقوم ببيع "فجل وجرجير" أمام بيته، وعند خروجه من البيت كانت تبلغه بوجود مخبرين يراقبونه، ويقفون على ناصية الشارع، وكانت المفاجأة أنه اكتشف أن هذا المخبر كان صديقًا حميمًا له، واسمه "رفعت السقا"!

وفي إحدى المرات وجد أن صديقه الملحن كمال الطويل، يقف مع "أم صلاح" ويقول لها: "يا ست أنا مش مخبر أنا كمال الطويل بتاع المزيكا صاحبه" لكنها لم تصدقه، وظلت تقول له: "دا مسافر من زمان قوي"، ولم تسمح "أم صلاح" للطويل بالصعود إلى منزل الأبنودي إلا بعد أن خرج هو بنفسه ليقول لها إنه صديقه بالفعل وليس مخبرًا.

وعاد الثلاثي: عبد الرحمن الأبنودي، وكمال الطويل، وعبد الحليم

حافظ، للعمل معًا في الأغنية الوحيدة التي كتبها الأبنودي للنصر وكانت "صباح الخير يا سينا"، وبعد أن تم تسجيلها، كان عبد الحليم قد وصل إلى الأمتار الأخيرة في رحلة مرضه، وقال للأبنودي: "ماتزعلش منّي أنا غنّيت وأنا تعبان جدًّا"، فرد عليه الخال: "أنت غنّيت من القلب وصوتك كان كله إنسانية وعذوبة لم أرها من قبل".

وسافر حليم بعد التسجيل مباشرة إلى إنجلترا، ووقف الأبنودي ليودِّعه قبل أن يتجه إلى المطار، لكنه لم يعلم أنه اللقاء الأخير.

ورحل عبد الحليم، وودَّعه الخال إلى الآخرة.

بعدها، وتحديدا في يونيو ١٩٧٥ كان السادات يفتتح قناة السويس، ومعه عبد الرحمن الشرقاوي وأنيس منصور، فنظر إلى الشط ووجد الفلاحين يروحون ويجيئون على الشاطئ، فقال: "مش دول بتوع عبد الرحمن الأبنودي بتوع وجوه على الشط، أمال الأبنودي فين؟".

ونشرت الصحف ما قاله الرئيس السادات.

واتصل مدير مكتب السادات فوزي عبد الحافظ بالأبنودي وقال له: "سعادة الريس منتظرك في استراحة المعمورة"، فرد عليه الخال: "يا عم أنا ماعرفش استراحة المعمورة ابعتولي عربية"، فقال له عبد الحافظ: "لأ.. اتصرَّف وتعالى.. وكلمني لما توصل إسكندرية".

ووصل الأبنودي، واتصل بمدير مكتب السادات من تليفون أحد المقاهي الموجودة على الكورنيش، وبعد دقائق، جاءت له عربية سوداء اصطحبته إلى استراحة الرئيس.

وفي أثناء سيره بالسيارة وجد أن كل من تمر أمامه السيارة يضرب له

التحية، لكنه لم يتبين إن كانت له أم لسيارة الرئاسة!

وبمجرد أن وصل إلى قصر الرئاسة، وضعه الحرس في غرفة المكتب، ومرت الدقائق ثقيلة على الخال حتى جاء السادات، وقال له بصوت أجشّ "أنت جيت يا عبد الرحمن"، فردَّ عليه: "أهلا سيادة الرئيس".

لكن حدثت حركة في منتهى الخبث والغدر.

فقد وجد الخال ترابيزة طويلة جدًّا، كأنها قد وُضعت من أجله، وبالتالي لا يستطيع مصافحة الرئيس إلا إذا أحنى رأسه!

وفجأة وفي أثناء مصافحته للسادات وجد مصورًا "طلع من تحت الأرض" خلف ظهره يلتقط له صورة، وهو يبدو منحنيًا أمام الرئيس، فأيقن أنها واحدة من ألاعيب السادات، وأيقن أيضًا أن رحلة عداء ستبدأ.

وبدأت الجلسة، ودار النقاش حول ديوان "وجوه على الشط" الذي كان يذاع كحلقات إذاعية بعد نكسة يونيو، وقال السادات للأبنودي: لما كنت بافتتح قناة السويس لقيت ناسك اللي أنت كاتب عنهم، فتذكرتك، خصوصًا أني كنت متابع حلقات "وجوه على الشط" يوميًّا، وكنت باسمعها مع عبد الناصر في أوقات كثيرة، وعشان كده أنا بقى عايزك تكمِّل بقى الانتصار، عايز بقه أشوف الفلاحين دول بعد النصر بقيت أحوالهم إيه.. وأنا عايزك تكلم الناس يا عبد الرحمن.. إحنا بتوع مصاطب.. مش زى صاحبك جاهين بتاع عبد الناصر".

فقاطعه الخال، وقال له: "صلاح جاهين قيمة عظيمة وكبيرة، وهو مثلي لا يكتب إلا قناعاته الشخصية، ولا أحد يُملي عليه شيئا".

فردَّ السادات: أيوه مش دا اللي قال "منا فينا الموج والمركب والصحبة والزينة" (يعني بتاع عبد الناصر)، فقال له: "بس هو أول من قال الديمقراطية"، فقاطعه السادات: "أنا باحبّ بليغ حمدي، ومش باحبّ كمال الطويل".

ويعلق الخال بقوله: "يعني هو لا يحب هذا الغناء اللي صنعه عبد الحليم وكمال الطويل وصلاح جاهين، أتاري هو عاش مع عبد الناصر كل دا وهو مابيحبوش".

خرج الأبنودي من استراحة السادات، وهو يغلي من فورة الغضب، واتجه إلى خالد محيي الدين، وجلس معه وطلب منه الانضمام إلى حزب التجمع، فقال له زعيم التجمع "النهارده بس أقدر أقول إن عندي حزب بجد".

وعلّق صلاح عيسى يومها قائلًا: "حد يدخل حزب من غير ما يقرا خطه السياسي"، فرد عليه الأبنودي: "أولا: دا مش حزب، دا اسمه التجمع لشرفاء مصر، ثانيا: علشان السادات يعرف إنه مش علشان قعد معايا قعدة ممكن يلوّث سمعتي".

ووقَّع الأبنودي على استمارة الانضمام إلى "التجمع"، لكن السادات لم يصمت!

بعدها قابل الخال أحد المحسوبين على السادات فقال له: "السادات بيعملك وزارة اسمها وزارة التثقيف الشعبي.. مبروك هتبقى وزير".

وظل فوزي عبد الحافظ ينشر في الصحافة أخبارًا كاذبة عن لقاءات لم تتم بين السادات والأبنودي.

وفى اتصال آخر أبلغ الأبنودي، فوزي عبد الحافظ، مدير مكتب السادات، بما يريده قائلا: يا فوزي بيه أنا راجل شريف، والشارع هو اللي عملني مش الحكومة، الحكومة اللي قبلكم حبستني، فلو سمحت أنا مش بتاع حد، أنا من الشارع المصري، وإذا كان "وجوه على الشط" أثّر في الرئيس فده لأني صادق مع الناس مش مع الرؤساء، وقول للريس إن أنا ما انفعش للشغلة دي.

فبُهت عبد الحافظ وقال: "كده يا أستاذ.. حاااااضر".

وأغلق الخال الهاتف، وروى ما جرى في رائعته "سوق العصر" حين قال:

مالي وماها البنوك؟

لا همّا كانوا قالولك

إن الفلوس

بِتْخُرّ من جيب أخوك..؟

ولو أقول الحق أبقى بازايد

ويبقى وَحْيي من بلد تانيه

وبرضه في الآخِر

أطلع انا اللي كنت باتاجر

مش التاجر

وانا لا صحيفه فْ يَدّي ولا جورنان

أشرح لشعبي القصة والعنوان.



المجنون والسادات!

انتهت العلاقة بين السادات والأبنودي، لكن الحرب بدأت!

كان الأبنودي عائدًا للتوّ إلى بيته، وبمجرد أن جلس على الكرسي فتح التليفزيون، فوجد أن الرئيس السادات يخطب قائلًا: "أمريكا وأستراليا وكل الدول الصديقة، والشيوعيون الخونة أعداء الوطن واللي لابسين قميص جمال عبد الناصر".

وبعد أن أنهى السادات كلامه، أمسك الأبنودي بقلمه، وجلس على مكتبه، ووجد نفسه يكتب:

الوحي ده.. ماجانيش من موسكو

ماجانيش من امريكا

ماجانيش غير من هنا من القلب.

فانا باعتقد إني باحبّ الوطن

واموت فداء للشعب.

أنا صوتي منِّي وأنا ابن ناس فُقَرَا

شائت ظروفي إني أكتب واقْرا

فباشوف وباغنِّي

والفقرا باعتينِّي

يا.. ناس.. يا هوه

قَبْلِنْ ما اقول قوله

إتأكدوا إنه صوتي ده وصَدَر مني.

أنا مش عميل حد

أنا شاعر

جاي من ضمير الشعب.

وبعد أن انتهى من كتابة رائعته التي أطلق عليها "سوق العصر"، رن جرس الهاتف، فرفع السماعة، فوجد الدكتور سمير فياض يدعوه إلى احتفال بذكرى ميلاد الزعيم جمال عبد الناصر في ميدان حلوان.

فوافق الأبنودي وقرر أن يلقي قصيدته الجديدة، لكنه خشي أن لا يُسمح له بإلقائها إذا عرف منظمو الحفل كلماتها التي تهاجم النظام، فاحتفظ بها في جيبه حتى صعد أعلى خشبة المسرح، بعد أن خطب لطفي الخولي وصبري عبد الله.

لكن بمجرد صعوده وجد هتافات عالية ظن في البداية أنها تحية له، لكنه فوجئ أنها هجوم عليه، واكتشف أنها أغنية ضده، من أغاني نجم والشيخ إمام.

ولم تهدأ عاصفة الهجوم عليه رغم محاولات البعض تهدئة الثائرين حتى قال الخال عبد الرحمن الأبنودي: "أنا هاقول للي يسمع واللي مايسمعش لأ" ثم بدأ في إلقاء قصيدته "سوق العصر"، ووجد وزير الداخلية النبوي إسماعيل بجواره يسجل له كل كلمة يقولها في قصيدته!

وبعد أول فقرة من القصيدة دوَّت عاصفة من التصفيق، وخرج من الاحتفال محمولًا على الأعناق، وصار بعدها ضيفًا دائمًا وأساسيًّا على الاحتفالات الكبرى التي ينظمها اليسار.

كان ذلك في سبتمبر ١٩٧٧، بعدها بأربع سنوات كتب الخال عبد الرحمن الأبنودي ملحمته "الأحزان العادية" في يناير ١٩٨١، ثم في الشهر التالي، وتحديدًا في ٢١ فبراير في عيد الطلبة كتب رائعته "المد والجزر" التي تنبأ فيها بمقتل السادات، وفي نفس التوقيت كتب قصيدته "لا شك أنك مجنون".

بعدما صارت قصائد الأبنودي بمثابة المدفعية الثقيلة التي تواجه نظام الرئيس السادات تم استدعاؤه إلى نيابة أمن الدول العليا، وعندما ذهب وجد رئيس النيابة عبد المجيد محمود ـ النائب العام الأسبق ـ في انتظاره.

وبدأ التحقيق، لكنه بدا هادئًا، ولم يتضمن سوى سؤال واحد فقط وهو: هل أنت صاحب قصائد "الأحزان العادية" و"المد والجزر" و"سوق العصر" و"المجنون"؟

فأجاب الأبنودي: طبعًا، وانتهى التحقيق.

ويعلق الخال بقوله: "أنا عمري ما كنت مدّعي بطولة، واللي بيقولوا عليًّا مخبر مايعرفوش أنا إيه اللي جرالي، لأني لا أبوح بأسرار مطارداتي وقطع رزقي".

بعد أسبوع واحد فقط من تحقيق نيابة أمن الدولة العليا، وجد عبد الرحمن الأبنودي نفسه مطلوبًا للتحقيق معه أمام المدعي العام الاشتراكي.

وقبل أن يذهب كان على موعد مع الكاتبة فريدة النقاش التي حضرت إليه لتجري حوارًا معه، فحكى لها أنه كان في نيابة أمن الدولة، فتعجبت.

وقالت له: أنت مالك ومال نيابة أمن الدولة.

الخال: أنا كان بيتحقق معايا هناك الأسبوع اللي فات.

فريدة: طيب وماقُلتش ليه؟

الخال: هو أنا قُلت لكم على اللي فات ده كله؟ أنا مش باقول، دي مشكلتي.

فريدة: لا طبعًا مش مشكلتك.

الخال: يا ستي أنا متحوّل على المدعي الاشتراكي بقانون العيب.

فريدة: لا يمكن، إزاي ماتقولش! أنت مش عضو في "التجمع"؟! قلت لها لا أنا عضو في مصر، وبعدين أنا شايل حال نفسي، هو انتي تعرفي إيه جرالي

في المهاترات دي كلها.

وخرجت فريدة من حوار الأبنودي وروت ما حدث معه.

فجاء إليه صحفي وصحفية يعملان لدى صحيفة "واشنطن بوست"

الأمريكية لعمل حوار معه حول تفاصيل التحقيق معه وإحالته إلى المدعي الاشتراكي بتهمة قانون العيب، وتم نشر الحوار في نفس اليوم الذي مَثَل فيه الخال أمام المدعي الاشتراكي.

ويروي الأبنودي تفاصيل ما جرى هناك بقوله: عند ذهابي للمدعي الاشتراكي وجدتُ يحيى الجمل وصبري مبدي ـ أحد المحامين من الإسماعيلية ـ لكني بطبيعتي لا أحب أن أصطحب محامين معي، وبمجرد أن ذهبت إلى مكتب المدعي الاشتراكي، قال لي مدير مكتبه: "يا سيد عبد الرحمن دول كلمتين بس مش عايزين محامين".

ودخلت إلى مكتب المحقق.. وبدأ كلامه، وقال:

ـ أستاذ أبنودي.. حضرتك لك قصيدة اسمها "المجنون"؟

الأبنودي: قبل أي قصيدة وقبل أي حاجة أنا عندي كلام أقوله، أنا أدين هذه الجلسة الحقيرة، وأدين هذا الاستدعاء.

فالجمل راح مزعَّق، وقال: أنت متطوَّع! قلت له: "هو أنا جيبتك.. أنا قُلت لك تعالى معايا؟! دي ورقة باعتها ظابط مباحث مايسواش تلات تعريفة للمدعي الاشتراكي".

فغضب جدًّا يحيى الجمل، فقلت له: "هو أنت معاهم ولَّا معايا.. أنا قُلت لك تعالى؟ أنت مالك بيا!".

واستكمل المدَّعي تحقيقه:

المدَّعي: هل لك قصيدة اسمها "المجنون"؟

الأبنودي: طبعًا.. قصيدتين واحدة اسمها "المجنون" في قصيدة في "الأرض والعيال"، والثانية اسمها "لا شك أنك مجنون".

المدَّعي: وهل دا شِعرك؟

الأبنودي: طبعًا شِعري.. أنا شِعري لا يُقلِّد ولايُقلَّد، تسمعه تعرف أن دا شعر الأبنودي، دا سؤال؟!

المدَّعي: ومَن تقصد بالمجنون؟

الأبنودي: باكلِّم نفسي.. لا شك أنك مجنون أنك مصدق الحاجات الجميلة، اللي السادات عمل عكسها وراح القدس، والناس مبسوطة بده فأنا مجنون إني مش زي الناس.

المدَّعي: وهل أنت ضد الزيارة؟

الأبنودي: طبعا ضد.. إلا ضد! الشعب المصري كله ضد، واللي مش ضد النهارده بكرة هيبقى ضد.

ويحيى الجمل مستمر في الصياح "أنت بتطوَّع ما تردّ على قد السؤال" وأنا مستمر أقول له: لو سمحت..!

شوية وجاء تليفون للمدَّعي الاشتراكي، فتغيَّر ١٨٠ درجة، وحطّ السماعة ووجه إليَّ الكلام:

المدَّعي: يا أستاذ عبد الرحمن أنت راجل مسموع.. الرحمة، ماينفعش كده، وأنت شايف الوضع حساس في مصر.. امضي.

الأبنودي: مش هامضي.

المدَّعي: امضيعَ الكلام اللي قولناه.

الأبنودي: برضو مش هامضي، احبسني مش هامضي.

المدَّعي: خلاص.

وأنا عمال أقول لنفسي إيه اللي خلاه تحول من الولعة للهدوء، فاستكمل بإذلال، وهو موصلني للباب، سألني:

المدَّعي: برضو خِفّ، يعني الولد والبنت الأمريكان دول...

الأبنودي: إيه دول؟

المدَّعي: اللي عملوا معاك حوار.

الأبنودي: أنا حد عمل معايا حوار؟ ولا أعرف حاجة.

المدَّعي: إزاي دا الحوار منشور النهارده.

الأبنودي: ولا أعرف حاجة.

عند الأسانسير، ويجي الجمل بيسألني هو كان بيقولك إيه، قلت له بيسألني عن الصحفيين الأمريكان اللي عملوا معايا حوار للـ"واشنطن بوست"، وأنا قُلت له لأ ماعملوش.

الجمل قال لي: ده أنا صدقتك. قلت له: ما المفروض تصدق، قال لي: دا أنت تقتل القتيل وتمشي في جنازته. قلت له: هو أنا صاحب المدّعي الاشتراكي؟! هو شغلته يسأل، وأنا شغلتي أقول لأ. قاللي: أصل شايفك من أول اليوم ماقولتش لأ غير في دي!

وبالفعل وجدت الموضوع منشورا في "واشنطن بوست" بعنوان: السادات يحاكم شاعر الفقراء بمقتضى قانون العيب.

بعد تلك الواقعة جاء خريف الغضب في سبتمبر، وتم اعتقال عدد كبير من رموز الصحافة والسياسة لكن عبد الرحمن الأبنودي لم يكن بينهم، رغم أنه بعد ما حدث كان من الطبيعي أن يأتي على رأس القائمة،

لذلك سألت الخال عن السبب فقال: "أنا كنت أول اسم لكن السادات شطبني بيده، قالهم دا لأ، ده له تصرف تاني خالص!".

ورحل الرئيس السادات، وفرح الأبنودي - لكنه لم يكن محقًّا أبدًا في فرحه - لدرجة أنه كتب قصيدة تمدح القاتل الذي اعتبره بطلا.

وعندما سألتُ الخال عن تلك اللحظة وعن شعوره وقتها قال: "كنت حاسس أن رحيله في الوقت دا نعمة، بغض النظر عن أنه أُغتيل، لأنى ضد الاغتيال، ولأني كتبت في لحظة انفعال، خصوصًا أن عمر الاغتيال ما حل مشكلة، واللي هيغتال هييجي مكانه، وهيجيب واحد بعده أسوأ، وعنده عقدة إن اللي قبله أُغتيل، لذلك أشعر الآن أني أخطأت؛ لكن وقتها استعدت كل البلاوي اللي شيّلهالي بدون ذنب"، فخرجت قصيدة "المتهم":

بطل يقول ويطول.

أسمر

ولا يسابقه القفص في الطول.

من غير سؤال بيقرّ

والقبضه قابضه عَ الحديد لا يفرّ.

القاضى بِشْتَغْبَى

والمتهم بيصرّ

شمس الحقيقه تحِرّ

والمتهم صامد

كل القضاه زايلين

والمتهم... خالد...



بَلا رئاسة.. بَلا معارضة.. بَلا بتاع!

التقى الأبنودي، مبارك ثلاث مرات.

الأولى كانت في الثمانينيات، بعد أن سمع مبارك أغنية "مصر يا أول نور في الدنيا"، وسأل عن مؤلف الأغنية، فقالوا له "عبد الرحمن الأبنودي"، فاتصل به صفوت الشريف وأخبره أن مبارك يريد مقابلته.

واتصل به أحد لواءات الرئاسة، وأخبره أن ميعاد اللقاء في التاسعة صباحًا، فردّ عليه الأبنودي: "أنا باصحى الساعة ١١، يا ريت تأخرولي الميعاد شوية"، فتعجب اللواء وقال له: "يا أستاذ أبنودي دا ميعاد رئيس جمهورية"، وهذه المواعيد يتم تحديدها بدقة شديدة قبل أسبوع على الأقل، ولا يمكن تغييرها.

فذهب الأبنودي في الميعاد لمقابلة مبارك، ورحب به، وقال له:

أنا سمعت الأغنية وسعيد بها، وبدأ بينهما حوار امتد لساعات، وكان برفقة الدكتور جمال سلامة ملحن الأغنية.

قال مبارك: أنا أول واحد بيصحى في البلد دي علشان أضمن أن العيش وصل للناس.

وردَّ الأبنودي: يا ريس مفتاح البلد دي هي الديمقراطية.

مبارك: أنا لو اديت الديمقراطية بالشكل اللي انت بتقوله مش هاعرف أحكم، وآديك شايف حال البلد.

الأبنودي: دا رأيي، ولازم دائمًا تلتقي بالمثقفين وتحاورهم.

مبارك: انتو كمان لازم تقفوا معانا.

الأبنودي: اقف مع الناس نقف معاك.

مبارك: أنا طلعّتهم من السجون.

الأبنودي: دي حركة سياسية!

وانتهى اللقاء، وخرج الخال من مقابلة مبارك، وهو يشعر أن لديه رغبة في الإصلاح، فقد كان حسني مبارك في بداية عهده، ولم يكن الطغيان قد تسلل وقتها إلى قلبه.

المرة الثانية التي التقى فيها الأبنودي حسني مبارك كانت في التسعينيات ووقتها كانت رائحة الصفقات الفاسدة لنجله "علاء" بدأت تفوح وتصبح حديث الناس، بل إن الشائعة الأكثر انتشارا في ذلك الوقت هي أن ابنه ألقى بالفنانة شيريهان في مياه الإسماعيلية (المدهش أن تلك الشائعة كلما تم نفيها تأكدت أكثر).

ويومها حاول الأبنودي التهرب من اللقاء لكن باءت محاولاته بالفشل، فذهب وهو يحمل رسالة واضحة يريد أن يبلغها للرئيس، وقال له: "الشعب المصري عنده جورنال سرّي، ولم يطلق شائعة إلا وتأكد الناس من صحتها في ما بعد". وأضاف الخال: "الناس مش مبسوطة، بناء الكباري مش كفاية"، فتساءل مبارك: "طيب أعمل إيه؟"، فرد الخال بحسم: "لأ من ناحية تعمل تقدر تعمل كتير".

وانتهت المقابلة.

أما المرة الثالثة التي التقى فيها الأبنودي مع مبارك فكانت دعوة لثلاثين فردًا من الكتاب والمثقفين لمقابلة الرئيس في قصر الرئاسة، وقتها كان الخال قد نشر قصيدته "عبد العاطي" في جريدة "الدستور" حين كان يرأس تحريرها الأستاذ إبراهيم عيسى، وذهب المثقفون وجلسوا في انتظار الرئيس.

ويروي الأبنودي ما جرى يومها قائلًا: لحظة دخول الرئيس كان واقفًا بجواري زكريا عزمي، ورغم ذلك تجاهلني ولم يُسلم عليَّ كالعادة، فحاولت أن أرجع إلى الوراء قليلًا من جواره "فداس على رجلي كي لا أتحرك"!

ودخل حسني مبارك، وسلّم على اثنين ثم التفت إليّ، وقال بلهجة تهديدية: "ازّيك؟ كويس؟!"، قلت له: "آه كويس يا ريس"، وراح مكمل مَشْي. وأتذكر أن كل الكتاب السياسيين ورؤساء تحرير الصحف كانوا في هذا اللقاء، لكن اللي "شال القعدة" كان الدكتور محمد السيد سعيد، وقد شن هجومًا ضاريًا على مبارك ونظامه، وتحدث عن كل شيء في فساد الدولة وفساد أبنائه.

لكن علاقة الأبنودي، بمبارك تبدلت بعد قصيدة "الاسم المشطوب"، فبعد نشر القصيدة بيومين، اتصل بزكريا عزمي من أجل قرار علاجه على نفقة الدولة، فلم يردّ، وتنصَّلت الدولة من علاجه، وكانت القطيعة.

ولقصيدة "عبد العاطي" قصة، ففي أثناء واحدة من احتفالات نصر أكتوبر تمت دعوة أبطال الحرب ومن بينهم البطل عبد العاطي صائد الدبابات، وكان الكل يسأل عنه، لكنه كان يجلس في آخر القاعة، وبمجرد أن تم الإعلان عن وجوده في الحفل دوَّى تصفيق حاد في أرجاء مسرح الجلاء التابع للقوات المسلحة لدرجة جعلت المسرح يهتزّ من فرحة الحاضرين به، ومن حماستهم فى التصفيق له.

لكن حدث ما لم ينتظره أو يتوقعه أحد!

فعندما تقدم عبد العاطي لمصافحة الرئيس، سلم عليه مبارك بتعالٍ شديد، وبجفاء أشد، وفي اليوم الثاني صدر قرار بعزل اللواء رئيس نادي الجلاء من منصبه، وكذلك تم عزل بعض المسؤولين عن تأمين القاعة، وكأنهم استنكروا كيف لهذا الرجل الفقير أن يسلِّم على الرئيس؟!

فاستشاط الأبنودي غضبًا عندما علم بما حدث، وقال لنفسه "الراجل دا أحسن من ولاد الرئيس ومن الرئيس نفسه.. هذا الرجل قدم نفسه للموت علشان بلده، ودلوقتي مش لاقي ثمن العلاج"، ولكن لم تكن فكرة القصيدة قد أتت بعد.

لكن بعد فترة وفي أثناء رحلة علاج صعبة عاشها الخال في واحد من مستشفيات فرنسا، تذكر كل ما جرى، وشعر بحجم المهانة التي تعرض لها واحد من أنبل وأعظم أبطال مصر على مدار تاريخها وهو

عبد العاطي، ورغم أن الخال كان تحت تأثير المخدر ظلّ "عبد العاطي" يُلحّ عليه، فغاب عنه النوم.

فقام، وجلس على سريره، ولم يكن معه سوى قلم دون ورق، فكتب رائعته "الاسم المشطوب" على ورق مناديل! والتي جاء فيها:

كلّمنا وانت في السرير عيّان

عن اللي وَلى... وخان

وعن اللي باع النَّصر فِ الدُّكان

مش ده الوطن

اللي اتفقت معاه يا صاحبي زمان

تِئن والأنين مرير

وانت بتتقلب على السرير

سرير فقير

تطلق زفير الحزن في النَّفَس الأخير

ولا الشاشات بكيت

ولا المذياع أذاع

فاكشف غطا وجهك

ومزَّع القِناع

بَلا حكومة

بَلا رئاسة

بَلا معارضة

بَلا بتاع!

لكن سنوات مبارك لم تكن هي أجمل سنوات الأبنودي الشعرية، بل ربما كانت أقلها من حيث إنتاجه الإبداعي رغم أن مبارك ظل يحكم مصر لمدة ثلاثين عامًا كاملة، لكنها كانت سنوات ركود ـ يسميها البعض استقرارا ـ لكن الأدق أنها كانت سنوات "ركوض".

الخال بفطرته لا يبدع في سنوات الركود، فالحالة الإبداعية ترتبط بالحركة حتى لو كانت سلبية، فالمبدع لا يعمل في الفراغ خصوصًا إذا كان يريد أن يكون لسان حال الناس، وضميرهم، والأبنودي طوال مسيرته الشعرية كان شاعرًا للناس وبالناس وحدهم حقق مجدا شعريا فريدا يصعب أن يكرره أحد بعده.

فالخال أبدع في أيام الرئيس السادات، رغم اختلافه الشديد معه، وهجومه القاسي عليه فإنه استطاع أن يكتب العديد من الملاحم الشعرية التي كانت تنتقد السادات، وتنتصر لخصومه بل لقَتَلَته أحيانًا!

لكن الحالة التي كان عليها الأبنودي في أيام الرئيس السادات، عادت إليه بعد ثورة يناير ٢٠١١ حين واكبها في أيامها الأولى بقصيدته "الميدان" ثم ملحمته "لسه النظام ماسقطش".

لكن الحالة الإبداعية وصلت إلى ذروتها في العام الذي صعد فيه

الرئيس المعزول محمد مرسي إلى كرسيّ السلطة مندوبًا عن جماعة الإخوان في قصر الرئاسة، فربما تكون الثمرة الوحيدة التي جناها الشعب في عام حكم مرسي وجماعته أنه فجَّر الطاقات الإبداعية لعبد الرحمن الأبنودي، لدرجة أن الخال كتب قصيدة واحدة ثلاث مرات، وفي كل مرة يُحدث فيها تغييرا جديدا يلائم الأحداث وكانت هذه القصيدة هي "آن الأوان يا مصر" التي عبّر فيها عما يجري في مصر قائلًا:

أبدأ كلامي بحمد الله على فضله

رحيم وعادل ولا فيه عدل فوق عدله

شاهد على ظلم من ظلموا باسم الدين

وقَلَبْها قَلْبَة اللي بيها مش هيتعَدلُوا

آدى الشّباب اللّى عَلَى قلبِك يا مصر عزيز

خلُّونا تاني نِحِسَّ إن احنا مش عواجيز

خدعونا لّما قالوا لنا: "يا أساتْذِتْنا"

شُفنا الأساتذة فْ ثواني بيرجعوا تلاميذ

يُحسب للمعزول مرسي أنه كان مُلهِمًا للأبنودي!

فلولاه ما استطاع الأبنودي أن يستمر لمدة عام كامل في كتابة مربعاته الشعرية التي أرّخت لما جرى في مصر خلال العام الذي حكمت فيه جماعة الإخوان، وقد كانت هذه المربعات بمثابة المدفعية الثقيلة التي يطلقها الأبنودي كل صباح في وجه الرئيس الذي خاطبه قائلًا:

الديكتاتور.. الشغل فيه ما زال

نسخة تبوظ.. فينحتوا التانية..

ساعات كتير يخرج عن التمثال

ويرتجل.. فيبوّظ الدنيا!!

كأن الأبنودي كان في انتظار هذه اللحظة، لحظة صعود رئيس الصدفة إلى كرسيّ السلطة، وكأن قدراته الشعرية الفياضة كانت تنتظر الفرصة لتضع الحاكم في حجمه أمام شعبه، ويكشفه أمام التاريخ حين يقول:

ويا مصر.. ياما عليكى اتقلِّبِتْ حُكّام

ناس تتوزن بالدّهب.. ناس تتوزن بالتِّبْن

حُكّام بَنُوا وعمَّروا ولَوُوا لِجامْ لِيَّام

الحاكم الأصلى غير الحاكم الاستبن..!!

الفصل الرابع

المد والجزر

مأساتنا.. إن الخونة.. بيموتوا

بدون عقاب ولا قصاص

مأساتنا

إن الخونة بيموتوا وْخلاص

بدون مشانق في السّاحات

وَلا رصاص!!



صار في الدنيا شيء اسمه "أحمد سماعين"

لم يجد الخال كرسيًّا مناسبًا لمكتبه الصغير سوى كرسيّ القسيس!

فذهب إلى أحد معارض الموبيليا القديمة، وطلب منه مواصفات الكرسيّ الذي رآه في الكنيسة، لكنّ صاحب المعرض أكد له صعوبة ذلك، لكن الأبنودي أصرّ على كرسيّ يشبه كرسيّ القسيس وأمام إصراره، قرر صاحب المعرض ـ المحبّ للخال ـ أن يساعده بصورة لم تخطر على باله، ولا يمكن أن تخطر على بال أحد!

قرر صاحب معرض الموبيليا أن يُرسل أخاه الصغير ليقفز فوق سور الكنيسة، ويتسلل إلى حديقة الكنيسة، ويسرق الكرسيّ الذي سرق عقل الأبنودي!

الأبنودي ما زال ـ حتى الآن ـ يضحك كلما تذكر هذه الواقعة،

ويقول: "بس بصراحة الكرسي فيه بَركة القسيس وخير ومعطاء.. أقعد عليه فلا يخيب مقصدي".

لكن المدهش أن الكرسيّ الذي فعل الأبنودي بسببه هذه المغامرة الكبيرة لا تلحظ عين زائره أيّ فرق بينه وبين أي كرسيّ عاديّ، فهو بسيط في كل شيء، لا زخرفة زائدة، ولا ضخامة، ولا فخامة، ولا شيء، سوى أن الأبنودي رآه بعين شاعر يرى في الأشياء ما لا يراه سواه، فيكفي أنه قد رأى في هذا الكرسيّ راحته.

ونفس الطريقة التي اختار بها الأبنودي الكرسيّ اختار بها مكتبه، فهو مجرد مكتب خشبي صغير، يشبه الأنتيكات، لا يزيد عرضه على نصف متر، ولا طوله على متر، اشتراه الأبنودي في منتصف الستينيات من شارع هدى شعراوي، وتنقّل به بين أكثر من سكن، ولم يفرّط فيه أبدًا، رغم أن صديقه المهندس نبيل غالي أهداه مكتبًا فخمًا وضخمًا لا يوجد منه سوى نسخة واحدة في قصر الملك حسين ملك الأردن، لكن الأبنودي رفض الجلوس عليه، ولم يتخلَّ عن مكتبه.

وكانت من أوائل القصائد التي كتبها عبد الرحمن الأبنودي على هذا المكتب ديوان "أحمد سماعين.. سيرة إنسان" وتحديدًا الجزء الأول والثالث منها حين كان يسكن الخال في باب اللوق، أما الجزء الثاني فقد كتبه في السجن.

والبطل الحقيقي لهذا الديوان هو "محمد مصطفى" ـ ابن عم الأبنودي ـ مات أبوه، وتزوجت أمه "نوارة" من عمه "موسى العبور" فظل مع جدته يشاغبها وتدعو عليه بالطاعون، وبأن يعمى فلا يرى تحت رجليه.

وكان "محمد مصطفى" ـ أو أحمد سماعين ـ يصرخ كمن مات له عزيز

ويصيح في وجهها مطالبا إياها بأن تعدّد عليه وتلطم وتنوح وتبكي قائلًا: "ابكي يا ولية، قطّعي خدودك، وعددي على "مرمَّد".. "مرمَّد مات"!

و"مرمَّد" على وزن "محمد" كما ينطقها سكان أبنود، و"مرمَّد" فيها من الرماد والشؤم ما يفزع فكانت تبحث حولها عن أي شيء تضربه به فلا تجد، فتصيح في عجز: ياكش تموت صُحّ صُحّ وما تلقى اللي يبكي عليك يا "قزين"، و"القزين" هي مزيج من حزين ويتيم ووش فقر.

لكن هذه السيدة الصلبة كانت لها مكانة كبيرة في قلب الخال، فكان يناديها بـ"مامتي عزيزة" ويصفها بأنها أقوى من الأصحّاء، فلم تَعُقْها "بَرْكتها" على الأرض كسباطة النخلة ـ التي تسقط مقلوبة بعد قطعها فتفرش نفسها على مساحة كبيرة من الأرض ـ عن التمسك ببقايا العمر، ينقلونها من الظل إلى الشمس ومن الشمس إلى الظل، تعاند الفصول وتناطح الزمن، وتخجل من أن تصبح متواضعة بسبب فقدانها قدراتها الحسية؛ فلسانها كان أقوى من لسان أي امرأة في الحي.

لكن لماذا اختار الأبنودي شخصية "محمد مصطفى" أو "أحمد سماعين" دون غيره لتخليده في ديوان كامل؟

هكذا سألتُ الخال.

وأجاب: كان جدع، ومالوش حد في الدنيا.

فقد كان يفعل كل شيء بنفسه، إذا أراد أن يأكل يذهب ليصطاد سمكته من النيل، وكان أمهر أبناء جيله في صيد السمك، وعلّمني صعود النخل، وصيد الحمام الجبلي، فقد كنا نجلس معًا ننصب الفَخّ للحمام الجبلي لنصيده من خلف ساتر، وفي أثناء جلوسنا كان دائم الحكْي

عن والده وأعمامه ويُتْمه في سن صغيرة، فلقيَ كلامه صدًى في نفسي.

المدهش أن الأبنودي روى سيرة "أحمد سماعين" وهو حي يُرزق، وحاول أن ينقله للعيش معه حين كان الخال يسكن في السويس ـ حتى يرحمه من العمل في مناجم الفوسفات التي كان يعمل بها معظم فقراء أبنود في ذلك الوقت ـ فذهب إليه، وقطع خمسة كليومترات محنيّ الرأس تحت الأرض حتى وصل إليه وسط غبار كثيف يُعمي العيون، ويسد الأنوف، ويسبب كل الأمراض الصدرية، واصطحبه معه هو وأسرته إلى مزرعته، واستعادوا ذكريات الطفولة، لكنه أبَى أن يكون عبئا على أحد، وترك الخال وعاد إلى منجمه، حيث يحسبه الجاهل غنيًّا من التعفف.

لكنه بعد سنوات قليلة مثلما عاش غريبًا مات فجأة!

ففي أثناء عمله في "منجم حِميضات للفوسفات" فجأة تصاعدت أبخرة من المنجم، وكلما ذهب أحد ليرى ما جرى لا يعود، حتى قرر محمد مصطفى أن يخوض المغامرة محاولا إنقاذ رفاقه لكنه ذهب ولم يعد، ولم تبقَ من سيرته سوى الصورة التي رسمها له الخال قائلًا:

يا حضرات المستمعين..

قبل ما اقصّ عليكم قصة هذا الأحمد سماعين

أحب أنبهكو لبعض التفاصيل.

فَدَه راجل مش مشهور..

أحمد سماعين فلاح مصري أبًا عن جد.

بسيط.. وأمير.

غني.. وفقير.

قلبه في لحظة حجر..

وفي نفس اللحظة.. حرير.

قضى نُصّ حياته وسط القنايات والطين.

والنُّص التَّاني..

بيلعب "سِيجة" أو يتفرج والّا يغنِّي في الأفراح

أو ينعس تحت كافورة في الضهر

لقي نفسه في ليلة محدوف من أرض الدنيا

وسط النساوين.

قالوا لابوه.

وأبوه كان شغال أيامها في اسطبل العمدة

قال - بعد ما ربط الحصانين - :

"سَمُّوه أحمد"

وبذلك..

صار في الدنيا شيء اسمه أحمد سماعين

ليه اسم في قلب دفاتر مواليد المركز

والمُديرية كمان.

وأُضيف لِلْبَنَي آدمين في العالم في اليوم دا

إنسان.

كانت الدنيا أيامها توبها مهربد.. مِ الحرب..

وماشية في سِكِّتها للحرب.

وفي يوم واحد..

حَسِّت أمه.. وأبوه

إن الدنيا حالتها صعب

فماتوا.

ولا لبسوا حرير

ولا ركبوا تاكس

ولا سمعوا الراديو

ولا راحوا "الريحاني" ولا شافوا "علي الكسار"

ولا ركبوا القطر

ولا عرفوا قْراية ولا كتابة

زيّ ما دخلوا الدنيا طلعوا يا مولاي

كل اللي حصل..

إن الاتنين اشتغلوا كتير

ولا أَكَلُوا غير البِتَّاوتين

ولا شربوا غير سِتَّاشر كنكة شاي.

زي ما دخلوا الدنيا حافيين.

طِلعوا حافيين

لكن قبل ما يمشوا

كتبوا على بوابة الدنيا..

"أحمد سماعين"

فاكر يامنة.. وفاكر الوش؟

المكان: على ترابيزة المطبخ!

الزمن: ١٠ دقائق فقط

القصيدة: يامنة

السبب: وفاة العمة يامنة

الحكاية: كان الخال في زيارة لقريته أبنود، وكعادته ذهب إلى ابن عمه حاملا الهدايا التي يقوم الأخير بتوزيعها نيابة عنه.

كان يفعل ذلك من أجل العمة "يامنة" وحدها؛ لأنه يعرف أنها لن تقبل منحة أو مساعدة من أحد، لكنها تقبل الهدية، وكان في كل مرة يذهب إليها ويجلس معها تسأله "هتيجي العيد الجاي.. وهتشرب مع يامنة الشاى؟" وهو يُجيبها: "هاجي يا عمة".

لكن هذه المرة جاء ولم يجدها!

فحين قال الخال لابن عمه: "يلّا بقى نطلع على عمتك"، فردّ عليه: "استنى بس ناكل لقمة"، فقال له الخال متعجبًا: يا عم مش هاكل.. نسلم بس على "يامنة" الأول. هنا اضطُّر ابن عمه ليخبره بما حدث، فقال له: "بصراحة أصلي ماكنتش هاقول.. يامنة ماتت".

وقعت الصدمة على الخال. حزن على عمته، وغضب من ابن عمه، وقال له: "يخرب بيت أبوك.. أنت قاعد ومخلّيني أشرب الشاي.. وأضحك ويامنة توفّت"، فردّ عليه: "أنا مش عارف أقولها لك كيف؟! ده لسه الأسبوع اللي فات، وإحنا لسه بنروح المندرة نعزّي".

فقام الأبنودي على الفور، وذهب إلى المندرة ليؤدي واجب العزاء في عمته "يامنة"، ثم عاد إلى القاهرة محمَّلا بعبق سنوات طويلة مضت.

وحين وصل إلى بيته وجد أن النوم قد خاصم جفونه، فدخل إلى المطبخ ليحتسي فنجانًا من القهوة، وأمسك بالفنجان وجلس على ترابيزة المطبخ يتذكر تفاصيل ما جرى بينهما في آخر لقاء جمعهما، ووجد نفسه يكتب:

والله وشِبْت يا عبد الرحمن

عِجِزْت يا واد؟

مُسرع..؟

ميتى وكِيف؟

عاد اللي يعجز في بلاده

غير اللي يعجز ضيف!!

هلكوك النسوان؟

شفتك مره بالتلفزيون

ومره ورُّوني صورتك في الجورنال

قلت: كِبِر عبد الرحمن!

أمّال أنا على كده

مُتّ بَقَى لي مِيت حُول!!

وغادرَت "يامنة" الحياة، وقبْلها "أحمد سماعين"، لكنهما لم يغادرا ذاكرة الخال، فهو ما زال يذكر، ويتذكر، ويروي ذكريات أيام الصبا حين كان يذهب إلى بيت عمته "يامنة" ويجلس معها هو و"أحمد سماعين".

فقد كان بيتها مخزنا للسمك، بفضل فيضان النيل الذي هدم جداره الخلفي، فاستقر السمك بكل أنواعه بين جدرانه الباقية، وكان الحال يظل كذلك لمدة شهرين كاملين حتى يبدأ النهر في جمع مائه من جديد، فيتسرب منه الماء شيئا فشيئا تاركًا بعضه في فناء بيت "يامنة" الخلفي.

وفي ذلك اليوم الموعود، كان يذهب الخال بصحبة "أحمد سماعين" وآخرين، وينزعون ملابسهم، وينزحون الماء عبر سور الجدار الذي سقط.. "أحمد سماعين" يقوم بالجهد الأكبر في مثل هذه الشؤون.

فالسمك كان عشقه الأكبر، لأنه لا يأكل اللحم، ومن الممكن أن يجلس زمنا لا يعكر صبره قلق إلى أن تشفق عليه سمكة فتأتيه لتنتحر مختارة راضية وتدخل سنارته بإرادتها ـ على حد وصف الخال ـ فمن أجل

السمك كان يبذل جهدا ما بعده جهد تحت إشراف "العمة يامنة"، ثم شيئا فشيئا مع نقص الماء يبدأ السمك يدرك المأزق الذي وقع فيه فيتخبط بحثًا عن ثغرة للنجاة، لكن "أحمد سماعين" يكون قد رفع السور، فلا تتمكن سمكة من فك حصارها للانسحاب مع ماء النهر الذي قدمت معه، تتحسر، وهي تحس أن الماء عائد من دونها، ثم يقتسم السمك ليأخذ كل من شارك نصيبه.

أما الآن فلا فيضان، ولا بيت العمة ولا شيء من أبنود التي عرفها الخال، فبعد رحيل "يامنة" صارت زيارة الخال لأبنود مقتصرة على متحفه، ومكتبته فقط.

لكن السؤال الذي يطل برأسه دائمًا: هو لماذا بقيت قصيدة "يامنة" في الذاكرة؟ لماذا ظلت مطلبا جماهيريا يطلبه الناس من الخال أينما حَلّ؟ لماذا ارتبط بها الناس؟ لماذا صار الجميع يعرف يامنة ويحبها؟ ولماذا صارت أقرب قصيدة إلى قلوب الأمهات؟ وما الفرق بين "يامنة" وغيرها من القصائد؟

والجواب: يامنة حالة فريدة ومتفردة، لا تحدث كثيرا، فبمجرد أن تقرأها أو تسمعها تتذكر أمك أو جدتك أو خالتك أو عمتك، وتشعر أن هذه القصيدة قد كُتبت من أجلك، فهي تعبر عن كل ما جال بخاطرك، وتتحدث بلسانك عما لم تستطع أن تواجه نفسك به، وتعيش معك وبداخلك، فكل كلمة في القصيدة تلمسك، تلمس إحساسك، وتخاطب وجدانك، وتجمع كل مفارقات الحياة الإنسانية من موت وحياة، وفرحة، وألم، وضحك وبكاء، وتألق وخفوت.

ويامنة شخصية حقيقية، كانت زوجة عم الأبنودي، واسمها الحقيقي

"آمنة" لكن في الصعيد ينطقونها "يامنة" أي "يا آمنة"، وهذه المرأة التي بلغت من العمر عتيًّا أدركت فلسفة الحياة الإنسانية وجوهرها ورأت ما لا نراه، وعرفت ما لا يعرفه سوى أصحاب البصيرة النافذة والرؤية الثاقبة والحكمة البالغة، لذلك كان من المنطقي أن يرتبط بها الأمهات، وتشعر بسعادة بالغة حين تسمعها أو تقرؤها، فهي تُخلِّد كل أم، وتُكرم كل سيدة مُسنّة، وتضعها في مكانة عالية لا يصل إليها أحد، لذلك بقيت يامنة وستبقى تقول:

فاكر يامنة.. وفاكر الوش؟

إوعى تصدقها الدنيا

غِشّ ف غِشّ!!

إذا جاك الموت يا ولدي

مُوت على طول

اللي اتْخَطَفوا فِضْلوا أحباب

صاحيين في القلب

كأن ماحدِّش غاب

واللي ماتوا حِتَّة.. حِتَّة ونشفوا

وهمَّا لسّه حَيِّين

حتى (سلام عليكم)

مش بتعدّي من برّه الاعتاب!!

أول ما يجيك الموت... افتح

أول ما ينادي عليك.. اجلح

أنت الكسبان...

إوعى تحسبها حساب

ولا واد.. ولا بِتّ

ده زمن.. يوم ما يُصْدُق.. كدّاب!!

سيبها لهم بالحال والمال وانْفِد

إوعى تبصّ وراك

الوِرْث تراب

وحيطان الأيام طين

وعيالك.. بيك مش بيك عايشين!!

يوووووه يا زمن

مشوار طولان..

واللي يطول يوم عن يومه يا حبيبي

حمار!!

****

لسه بتحكي لهم بحري

حكاية (فاطنه وحراجي القط)؟

أبّاي.. ما كنت شقي وعفريت

من دون كل الولدات

كنت مخالف...

بِرّاوي

وكنت مخبّي في عنيك السحراوي

تملّلي حاجات

زيّ الحِدّايه..

تخوي الحاجه وتطير.

من صغرك بضوافر واعره

ومناقير!!

بس ما كنت كداب

واديني استنّيت بالدنيا

لما شعرك شاب!!

******

قِدِم البيت

اتهدّت قبله بيوت وبيوت

وأصيل هوه

مستنيني لما أموت

حتيجي العيد الجاي

وإذا جيت..

حتجيني الجاي؟

وحتشرب مع يامنة الشاي؟

حاجي يا عمَّة..

وجِيت...

لا لقيت يامنة ولا البيت!!

حراجي لم يرَ السد العالي!

في عام ١٩٦٦ تم اعتقال الخال، وتمت مصادرة كل أوراقه التي تضم أشعاره.

وكان من بين هذه الأوراق ديوانه الأشهر "جوابات حراجي القط"، وعندما طلب منهم الخال أوراق الديوان وأبلغهم أنها لا تحوي سوى أشعاره رفضوا، وقالوا له "دا شعر شيوعي"!

يومها اعتبر الأبنودي أنه لم يكتب هذا الديوان، وأن "حراجي" انتهى إلى غير رجعة، خصوصًا أنه لم يكتب أبدًا أي قصيدة مرتين؛ لذلك حاول أن يقنع نفسه بأنه لا توجد قصيدة اسمها "حراجي"، وبعد أن خرج من السجن، وحدثت النكسة سافر إلى السويس واستقر هناك.

لكن في عام ١٩٦٩ حدث تغيُّر أعاد "حراجي" إلى الحياة.

وقتها كان السد العالي هو حديث مصر بأسرها، وأملها الباقي بعد

النكسة في إعادة الأحلام التي قضت عليها "٥ يونيو"، وكان الأبنودي يرى أن هذا المشروع يمكن أن يُغيّر وجه مصر إلى الأفضل والأجمل، فقرر زيارة السد، والكتابة عنه.

فذهب بصحبة صديقيه سيد خميس وسيد حجاب؛ لزيارة وزارة السد العالي حيث كانت في نفس الشارع الذي يسكن فيه الأبنودي، وكان وقتها سيد حجاب قد نشر قصيدة جديدة في "الأهرام" (في مربع صلاح جاهين) وعندما وصل الثلاثة إلى الوزارة وجدوا الموظف المسؤول عن رحلات السد في الوزارة، ويُدعى "حسني أمين" (ما زال صديقا للخال حتى الآن) محتفظا بقصيدة حجاب تحت زجاج مكتبه، فعندما شاهدوا ذلك، قالوا "كده ضمنّا إننا هنروح السد العالي مرتاحين".

لكن عندما طلبوا من الموظف الذهاب إلى السد العالي ليكتبوا عنه، قال لهم: "لا تتفاءلوا كثيرا إحنا مش في الاتحاد السوفيتي الذي يُرسل الشعراء والكُتاب إلى المشاريع القومية، وأنصحكم بأن لا تحاولوا مرة أخرى، فلن تذهبوا".

وبالفعل تم رفض الزيارة، فعاد الثلاثة، وقد خاب مسعاهم.

لكن الخال لم ييأس، وقرر أن يكرر المحاولة مرة أخرى، ولكن عن طريق آخر، وهو أن يذهب بنفسه وعلى نفقته الشخصية كأي مواطن بسيط يريد أن يذهب ليرى واحدًا من أكبر مشاريع بلده على مدار تاريخها، فذهب إلى محطة القطار، وقام بحجز تذكرة سفر إلى أسوان، وسافر بالفعل حين كانت الرحلة تستغرق يومين في الطريق، وبمجرد أن وصل إلى مدينة أسوان سأل عن الطريقة التي يذهب بها العمال إلى السد العالي.

وبعد ساعات قضاها الأبنودي في رحلته من مدينة أسوان إلى السد العالي واضطر خلالها إلى الاستعانة بأكثر من ثلاث وسائل مواصلات، وصل أخيرا.

وبمجرد وصوله سأل عن المكان الذي يقيم فيه العمال القادمون من قرية أبنود للمشاركة في بناء السد، فدلّوه على المكان.

ويروي الخال ما رآه هناك بقوله: عندما وصلت إلى مكان عمال أبنود وجدت العيال اللي كانوا معايا في المرعى، وقد كبروا ويعملون في السد، في مكان لم يُطرَق من أيام الفراعنة، وقعدت معاهم في السد نحو ١٧ يومًا، وكان أكلنا اليومي "المِشّ"، وجبتلهم لحمة مرتين، وكان بيكون معاهم بصل وثوم وملوخية ناشفة وطماطم ناشفة وحِلل، ولم يكن طبعًا فيه "استحمام"، فكانوا يملؤون صفيحة مياه من النهر ويغتسلون بها، وينتظرون ملابسهم حتى تجف، لكني وجدت أن العمل قد غيّرهم، وأثّر على لهجتهم.

ويستطرد الخال: بعد تجربة إقامتي في السد العالي، تذكرت "حراجي البِسّ" صديقي في الطفولة الذي كان معي في أبنود، وقلت لنفسي لو "حراجي" كان هنا مكان أي واحد من الرجالة دي، هل كان هيتغير؟، فقلت أجرّب أنقله إلى هذا المكان حتى لو على الورق، خصوصًا أن حراجي لم يرَ السد العالي، ولم يذهب إليه أبدًا!

ويفسر الخال سر اختياره لـ"حراجي" ليكون بطلا لديوانه بقوله: "حراجي" نسبة إلى الأرض "الحَرَجة"، وقد كان عريضا وضخم الجسم، وكنا نلعب معًا، ولكن لعبه كان عنيفا بسبب جسمه، وكان من يأخذ "خبطة" من حراجي تعلّم في جسمه ثلاثة أشهر، ولكن حراجي كان

عنده "شوية سذاجة"؛ لذلك أردت من خلال شخصيته أن أرسم سذاجته الجميلة التي تصورتُ شكلها بعد أن تأثرَت بالماكينات الحديثة"، فيقول لزوجته:

في الراديو يا فاطنة يقولوا:

بنينا السد.. بنينا السد

لكن ما حدّش قال:

السد بناه مين

بنوه كِيف

نايمين ولّا قاعدين!

بينما ترد عليه زوجته فاطمة أحمد عبد الغفار التي تريد أن يعود لها بعد أن طالت غيبته عليها قائلة:

أهي هيّه هيّه الحدوتة

مش كنت هنا بتزرع في أراضي الغير

وآخر الحُول تكون اتهدّيت

والغير ياخد الخير؟

عندك نفس القصة يا حراجي

صدّق فاطنة وتعال

هات الرجّال وتعال

لو راح يدّوك كانوا ادولك

همّا ما عاوزين منك يا حراجي

غير حيلك

لميتَى حنقعد عُبطه كده

يلعب بدماغنا دِيِّتى وده

لكن المفاجأة أن الخال رأى "حراجي" بعد أن كتب ملحمته، فقد التقى معه في نهاية الستينيات بالصدفة.

فقد كان يقود الخال سيارته في منطقة "شندورة" على القنال، وخُيِّل إليه أنه شاهد "حراجي"، فعاد بالسيارة إلى الخلف، وتأكد أنه هو فعلا، وأراد أن يعرف إذا كان ما زال ساذجا على حاله أم لا، فنادى عليه، وقال له: اركب في الكرسيّ اللي ورا هوصلك بيتك. فصعد "حراجي" إلى سيارة الخال، لكنه وجد أنه لا يسير في طريق بيته.

فصاح "حراجي" قائلًا: "مودّيني فين يا بيه" فقاطعه الخال: "اسكت خالص وانزل، أنت جاسوس بتشتغل لحساب إسرائيل"!

فبكى "حراجي" لكنه عندما نظر في وجه الأبنودي ضحك، وعانقه بشدة وكانت آخر مرة يرى فيها الأبنودي، حراجي الذي لم يعمل في السد العالي إلا من خلال ملحمته "جوابات حراجي القط".

ما رواه الخال لي عن حراجي الحقيقي، دفعني إلى أن أعرف منه مَن تكون "فاطمة أحمد عبد الغفار" الحقيقية التي رسم لها صورة شعرية

بديعة؟ هل كان يتصور والدته فاطمة قنديل؟ أم أنها مجرد شخصية خيالية؟

فجاء جواب الخال مفاجئا بقوله: "فاطمة أحمد عبد الغفار لا تشبه أمي لكنها صورة من فاطمة أختي، التي اكتسبت من طباع فاطمة قنديل وستّ أبوها، فأخذتها نموذجًا لزوجة حراجي، التي تمتلك هذه الطاقة الهائلة من الحب والحنان، فأختي حين تعرّض زوجها لمحنة كبيرة وغاب عنها لمدة ثلاث سنوات، كانت لها مقولات مثل "شامّة ريحة هدومه ومش باقْدَر أنام"؛ لذلك هذا الانتماء الشديد إلى زوجها وحنانها المدهش ورِقّتها الجميلة هو ما دفعني لاستحضار صورتها وأن أكتب عن زوجة حراجي، خصوصًا أن أختي "فاطمة" تسكن وجداني ولا يمر يوم واحد دون أن أتحدث معها، وأطمئن على أحوالها".

لذلك كانت لغة زوجة حراجي ناعمة، وصادقة، ومؤثرة، ومُعبرة عن نساء عانين كثيرا من غياب أزواجهن، لذلك تقول "فاطمة":

يعني بعد ما تخرَب يا ابو عيد

حيقولوا حراجي كان شغال ومفيد

ادُّولوا وظيفة بيه؟

إياها السبعة جنيه!!

لكن السؤال لماذا صارت جوابات حراجي القط إلى زوجته فاطمة أحمد عبد الغفار مشهورة إلى هذا الحد وباقية إلى الآن؟

والجواب كما ورد على لسان الخال:

أولًا: لأن هذه القصيدة ليس لها سابقة في الشعر.

ثانيًا: صدق التجربة، ففاطمة أختي وبيننا تاريخ طويل مشترك يجعلني قادرا على تجسيدها، ونموذج "حراجي" هو نموذج الشباب الذي عشت معه في قريتي وهو يشبه الشباب الموجود في كل القرى.

ثالثًا: زمن السد العالي هو زمن العظمة كلها، ولا يوجد أي عمل حتى دراسي عن السد العالي ظل على قيد الحياة، والناس لا تقرأ الرسائل بالضرورة من أجل السد العالي، ولكن للعلاقة الفريدة بين حراجي وزوجته، وفي المشاعر الاستثنائية التي تجمع بينهما.

ويواصل الخال حكاية حراجي قائلًا: "لكن ديوان حراجي كان ممكن أكتبه من غير ما أروح السد العالي، لأن الشعر مش مرتبط بمكان، وحراجي أول عمل درامي شعري لي؛ لذلك كلما ذهبت وألقيته في أمسية وجدت صدًى رهيبًا له".

لكن زيارة الأبنودي للسد العالي التي أنتجت لنا رائعة "جوابات حراجي القط" لم تكن الزيارة الوحيدة التي قام بها الأبنودي للسد في هذا التوقيت، فقد ذهب الأبنودي مرة أخرى حين كان الزعيم جمال عبد الناصر يفتتح الساتر الترابي، وكان بصحبته الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل صاحب القصيدة الخالدة "النهر الخالد".

يومها أخذ الخال قاربًا في النهر وذهب إلى العوّامة التي يجلس بها "محمود إسماعيل" خلال فترة الرحلة، ونادى عليه "يا عم محمود" وطبعا لم يتخيل "محمود إسماعيل" أن ينادي عليه أحد من الماء، فقال "مين.. عبد الرحمن!" فرد عليه الخال: "انزل أوّريك النهر الخالد اللي كتبت عنه وأنت ماشفتوش.. أنت فاكر اللي في بلدنا دُكهَ نهر؟!"، وقام الاثنان بجولة نيلية في جزر أسوان.

لكن الخال لم يكتب حرفًا واحدًا عن السد العالي بعد هذه الزيارة المُرفهة التي كانت ترعاها الدولة، بينما تجلت إبداعاته حين زار السد مع الأنفار الذين قال عنهم على لسان حراجي لزوجته:

في السد يا فاطنة...

صنفين مِ الأنفار:

صنف اللي تبع الشركة

وصنف مع مقاولين

وأنا كنت مع مقاول

من يوم ما باعني الحاج حسين

لحين ما الأستاذ طَلْعت

دلدلِّي حِبال الخير

ونَتَعْني من الكَحْت

ونَجَدْني من تعب الأنفار

حديث المربعات

في ١٦ يونيو ٢٠١١ كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها الخال وأجلس معه.

يومها ذهبت إليه في بيته في الضبعية في الإسماعيلية بتكليف من الأستاذ إبراهيم عيسى لأحصل منه على أحدث قصيدة كتبها لننشرها في جريدة "التحرير" في الأعداد الأولى.

القصيدة كانت "لسّه النظام ماسقطش"، لكن عنوانها كان لافتًا، فلم يكن وقتها بعد شهور قليلة من ثورة يناير قد التفت أحد إلى أن النظام القائم هو امتداد للنظام السابق الذي ثار الشعب عليه، لذلك أمسكت بالورق الذي سطر عليه الخال قصيدته لأقرأ ما فيه لكنه أمسك الورق من يدي، وأعاده إلى المنضدة التي أمامه مقلوبًا!

كان هدفه أن لا أقرأ أمامه، ثم قال لي: "اقرأ لما تمشي، وابقى كلمني قول لي رأيك".

اندهشت لكني التزمت بما قاله الخال، فقد كنت أحمل في ذهني طوال طريقي إليه كل ما قيل عنه، من ثناء عظيم، ونقد حاد.

لكن أكثر ما جال بخاطري هو ما كتبه الأديب خيري شلبي عنه حين قال: "عبد الرحمن الأبنودي ـ دون أدنى مبالغة ـ يمثل أحد أهم الحقول الخصبة في الشعر المصري الحديث، ونظلمه ظلمًا فادحًا إن قلنا إنه مجرد شاعر كبقية شعراء جيله، ونرتكب جرمًا في حقه ـ كدارسين للشعرٍ ـ إذا اتخذنا مِنٍ العامية ذريعة للانتقاص من قيمته، فإذا كنا أسوياء حقًّا، منصفين حقًّا، لقلنا إن الأبنودي يوضع في كفة، وجميع شعراء جيله ـ فصحى وعامية على السواء ـ في كفة.. حقا إن كل شعراء جيله على درجة كبيرة من الموهبة، أما هو فإنه نَفَس شعري خاص، تيار كامل، مدرسة، لا أقول إنه موهوب بل أقول إنه الشعر ذاته، خلقه الله أصلا ليكون شاعرا".

قرأت ما كتبه خيري شلبي عشرات المرات، فكان بدهيًّا أن أذكره، وأتذكره، وأنا في طريقي إلى الإسماعيلية لمقابلة الخال، لذلك كنت أدرك قيمة وأهمية وروعة أن أكون أول من يقرأ واحدة من قصائد عبد الرحمن الأبنودي، لذلك كنت شغوفًا جدًّا لقراءة القصيدة في أسرع وقت ممكن، فانتهيت من قراءتها قبل أن أصل إلى القاهرة، وتوقفت كثيرا عنده قوله:

الثورة كالزحلفة.. ولاكنها ثورة

كإنها لعبة ولعبناها في محاورة..

كسبنا دَوْرة.. وغيرنا كسبوا ميت دَوْرة

وإن جيتوا للجد.. قَدَم الثورة مشلولة

الثورة.. لازمها ثورة أقوى من الأولى

ده احنا ضميرها.. وضميرها بيفهم الفولة

هدية بنقدموها لأمنا الغولة!

تعبنا.. رحنا نشوف ناس غيرنا مسؤولة

دم الشهيد اللي هز الدنيا تحت وفوق

بعناه بحبّة كلام.. مايستروش عورة!!

المدهش أن الخال كان مهتما بأن يسمع رأيي في الملحمة البديعة، وكنت مندهشا من سعادته برأيي، فهل كان يحتاج إلى رأي شاب لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره في واحدة من أبدع قصائده؟ هل قيمة شعرية كبيرة بحجم عبد الرحمن الأبنودي يهتم بمعرفة آراء القراء حتى لو لم يكونوا من المتخصصين؟ هل يصل لهذه الدرجة من التواضع؟ هل من كان يسمع رأي صلاح جاهين وفؤاد حداد وأمل دنقل ونزار قباني ومحمود درويش يمكن أن يسمع رأي أحد بعد رحليهم؟!

الأسئلة لم تنتهِ، لكنها بدأت.

وتعددت اللقاءات بيني وبين الخال، وصار بيننا تواصل دائم، واتصال شبه يوميّ، وتأكدت بعد أن توثقت علاقتي به أنه شديد الخجل حين يسمع من يُثني عليه، وأنه حين ينتهي من كتابة قصيدة جديدة ينتظر آراء العوام فيها قبل آراء المتخصصين، ويُنصت حين يسمع هذه الآراء بصورة تدعو إلى الحيرة والدهشة.

لكنه الإخلاص وحده.

فهو حين يكتب جديدا لا يعتمد على رصيده الضخم في قلوب محبيه، بل إنه يريد أن يعيد اكتشاف نفسه وموهبته الفذة مع كل كلمة يكتبها، وهذه هي القيمة الحقيقية لعبد الرحمن الأبنودي ذلك المَعين الذي لا ينضب، رغم أن أمثاله من نجوم الشعر يكتفون بما قدموه، وهو بالفعل يكفيهم.

لكن هذا هو عبد الرحمن الأبنودي الذي أَحبَّه الشعب المصري لبساطته، قبل شعره، لكني عرفت الخال عن قرب تمام المعرفة عبر "المربعات" التي تعد أكبر ملحمة شعرية لو نظرنا إليها نظرة فاحصة وموسوعية.

فقد أرّخت لعام كامل في تاريخ مصر، ولم نعهد مثل هذا التأريخ بطول التاريخ وعرضه، ولم نعرف تأريخا مشابها سوى تاريخ الجبرتي الذي كتبه نثرا، بينما كتبه الخال شعرا لتوثيق كل ما جرى في مصر يومًا بعد يوم ولمدة عام كامل لم يكن يتصور الأبنودي في بدايته أنه يمكن أن يستمر أكثر من ثلاثة أشهر - من تجربة استثنائية لا يمكن تكرارها - في كتابة شعر يوميًّا.

لكن للمربعات قصة وتفاصيل شاء القدر أن أكون شاهدًا عليها.

البداية كانت عندما اتصلتُ بالخال، أطمئن عليه، وأسأله عن صحته وأحواله، ففاجأني وقال لي: "أنا لقيت نفسي باكتب حاجة كده عايزك تسمعها"، وقال:

إحنا ماطردناش مبارك

ولا حطّيناه في سجن

بُصّ في الجورنال.. مبارك

نَفسه.. بس طلع له دقن!!

وصفقت للخال واستأذنته في نشرها في "التحرير"، فوافق متكرمًا.

واتصلت بالأستاذ إبراهيم عيسى الذي طار فرحا بهذه الرباعية ـ التي لم يكن الخال قد أطلق عليها اسم مربع ـ واحتفى بها ـ كعادته في الاحتفاء بالمبدعين ـ في الصفحة الأولى من جريدة "التحرير".

وبدأ الأستاذ إبراهيم يتواصل مع الخال ليكتب في "التحرير"، وفي البداية كان الاقتراح أن يكتب الخال مقالات يروي فيها ذكرياته، أو يتم تفريغ حكايات الخال التي كان يرويها على قناة "القاهرة والناس" فى شهر رمضان، لكن الأبنودي رفض بشكل قاطع.

واتفقا على أن يحصل الخال على فرصة لمدة أسبوع للتفكير، للرد إذا كان يستطيع الكتابة أم لا، لكن بعد ثلاثة أيام فقط كان رد الخال جاهزا، وحاسما وقال: "أنا جاهز.. أنا هاكتب مربعات.. كل يوم مربع".

كان الخال خلال يومين فقط قد كتب عددا هائلا من المربعات، فتذكرت ما قاله عنه خيري شلبي "إنه لا يعاني من الكتابة ولا يبذل جهودا مضنية في الإبداع إنما هو يمتاح من بئر ليست تنفد".

وبدأت رحلة "المربعات" اليومية، وقرر الخال أن يلاحق الأحداث

بشعره، فعندما كثرت خطابات الرئيس محمد مرسي وقلّت أفعاله كتب يقول:

وعَازْلينِّي عن الدنيا

بقيت ماعرفش شيء عنكم

كأني رئيس بلد تانية!!

بقيت باخْطُب بدل ما احْكُم

وحين وضح للجميع أن كرسيّ الرئاسة صار شاغرا منذ جلوسه عليه كتب الخال:

الجِبَّة واسْعة على مَعَاليك

والكرسيّ مِتْهزّ.. مَقَامُه

رجَّعْتنا لْزَمَن المماليك

يرحم (قَراقُوش) وِأيامه!!

استمرت المربعات، وصار اتصالي بالخال كل يوم، مرة ومرتين، وأحيانا ثلاثًا ولم أجد في حياتي أحرص من الخال على ما يكتبه، فهو يُراجع ويُدقّق ويُفنّد ويُفكر ويدرس ولا يكلّ ولا يملّ من مراجعة كل شيء بدقة بالغة.

ففي كل يوم يصل "المربع" على الفاكس ثم نقوم بكتابته على

الكمبيوتر، ومراجعته ثم إرساله إليه ليتأكد من كل كلمة وحرف وتشكيل موضوع فوق الحروف، ثم بعد ذلك يعيد إرسال المربع مرة أخرى بتعديلاته، وربما تتغير الأحداث في دقائق، فيرسل مربعا آخر، فيمرّ بنفس دائرة العمل.

والخال يرسل المربعات بأكثر من طريقة، فهو يرسل سبع مربعات كل يوم جمعة، ليتم نشرها على مدار الأسبوع، لكنه كان يقوم بإرسال مربعات أخرى طوال أيام الأسبوع خصوصًا أن الأحداث كانت متلاحقة، وقد أراد أن يؤرخها شعرًا، ويواجه الاستبداد بقذائف شعره، فقال:

امنع البنزين وشِلّ المدينة

برضه هيكونوا هناك في الميعاد

هي دي الحيلة يابو راس تخينة

كل ما تعاند هنزداد في العناد

المدهش أن الخال كان ينتظر رأي الناس كل يوم، وكان يريد أن يعرف رأي كل من يتابعه، ويتلقى مكالمات يومية من أحبابه يُثنون على ما يكتبه، وصار للمربعات مريدون ينتظرون جريدة "التحرير" من أجلها، وصار لها صفحات كثيرة على مواقع التواصل الاجتماعي، ويصل عدد المشتركين فيها مجتمعين إلى مليونَي شخص، ولعل أكثر المربعات انتشارًا على صفحات التواصل الاجتماعي هو ما قاله بعد ثورة ٣٠ يونيو التي وقف فيها العالم أمام إرادة الشعب المصري، وحاولت دول كثيرة أن تعيد الإخوان إلى الصورة وإلى الكرسيّ لكن جاء الرد من الخال قاطعًا بقوله:

لا أمريكاني.. وَلاَ ألماني..

ولا إيراني.. وَلاَ أردوغاني..

ولا قَطَر ولا مِيتْ آل ثانِي..

حَيْرجّعُوا (العَرْش) الإخواني!!

كان الكاتب الكبير إبراهيم عيسى يدرك منذ اللحظة الأولى أن جريدة "التحرير" قد دخلت التاريخ بنشرها "مربعات الأبنودي" وأن هذا حدث فريد غير مسبوق في تاريخ الصحافة العربية، وأن التاريخ سيذكره لها مثلما يذكر أن مجلة "صباح الخير" كانت تنشر رباعيات صلاح جاهين.

لكن الخال كان حريصا على أن لا تشبه "مربعاته" رباعيات جاهين، فالمربع والرباعية يختلفان علي مستوى الشكل والمضمون ـ مثلما يقول الأبنودي ـ فعلى مستوى الشكل الرباعية تتكون من أربعة أبيات شعرية، بينما المربع يتكون من أربعة أشطر.

والرباعية تتفق قوافيها ما عدا البيت الثالث فإنه يشبه "الخَرْجة" في الموشح بينما "المربع" تتفق قافية الشطر الأول مع الثالث، والثاني مع الرابع.

أما على مستوى المضمون فإن الرباعية أقرب للتأمل الذاتي في الحياة، وحكمة الشاعر التي خرج بها إلى الدنيا، لكن المربع قد دأب الناس على قوله في صعيد مصر ويتحدث دائما في أحوال الدنيا والحياة العملية الواقعية مثل "خيانة الزمن وتخلّي الأحباب والأصحاب والأقارب

والإحساس بالوحدة، وأن الزمن يعطي مَن لا يستحق ويسلب مَن يستحق، وهكذا".

والمربع له دور رئيسي فى السيرة الهلالية، فالسيرة لا تُسمع إلا "مُربعة" والشاعر الذي لا يستطيع أن يروي السيرة من خلال مربعات فهو لا يُعتبر شاعرًا من وجهة نظر جمهور السيرة، ثم إن المربع في السيرة لقصر ساحته والوقت الذي يستغرقه يصلح كوحدة فنية متوالية ومتابعة تتأرجح بين المديح والغزل والحرب والرثاء والعشق، فقط على الشاعر أن يرقق أو يضخم أو يؤنث من صوته.

والخال عاش قرابة نصف قرن من الزمان بين شعراء السيرة، ورواتها، ولذلك فإن الشكل الأمثل له عندما قرر أن يرصد يوميا ما يدور من أحداث، وما يجري من تقلبات سياسية ـ بشعره ـ وجد أن المربع هو الأقرب إلى قلبه وعقله، حيث يسهل فيه التنقل بين العام والخاص، والذاتي والموضوعي ـ على حد تعبير الخال ـ لذلك أرخت المربعات لما جرى في مصر لمدة عام كامل مليء بالأحداث والتفاصيل، والعجائب، ويمكن لأجيال تالية فاتتها هذه الفترة الحرجة والمختلفة من تاريخ مصر، أن تعود لقراءتها، لتعرف ماذا حدث للمصريين في عام حكم الإخوان المسلمين، خصوصًا أن المربعات بدأت بعد أقل من شهرين من وصول محمد مرسي إلى كرسيّ السلطة، واستمرت بعد رحيله بشهرين كاملين.

•



أنا لو بقَيت الرئيس هاعيِّن أصحابي!

لنا أعمام كثيرون، ولكن ليس لنا سوى خال واحد فقط هو عبد الرحمن الأبنودي.

منذ اللحظة الأولى لميلاده في وجدان المصريين قرروا أن يمنحوه لقب الخال، والخال عندنا في الصعيد مصدر رحمة، لا يطمع في ميراث ولا يقاسم اليتامى ما ورثوه عن الأب ـ على حد تعبير الأديب جمال الغيطاني ـ فهو مصدر الرحمة والذَّود عنهم.

لكن هذا اللقب لا يقلل من عظماء آخرين من أعمامنا الكبار الذين تعلمنا، وما زلنا وسنظلٍ نتعلم منهم، لكن اللقب يعني أن الخال حالة مختلفة لا مثيل لها لا يُقلِّد، ولا يُقلَّد، فقصيدة الأبنودي لها مواصفات خاصة وخاتم مميز لا تجده على غيرها، من هذه المواصفات:

١ ـ أنها لا تحلِّق في الفضاء بقدر ما تهوى أن تخوض معاركها على

الأرض، ومع الكبار والعيال أيضًا، لذلك تجدها دائمًا تعبّر عن أشخاص من "لحم ودم"، وترسم لهم صورا حية وحيوية وكاملة ومكتملة داخل عقلك ووجدانك، ولعل أشهر مثال على ذلك قصائده "جوابات حراجي القط" و"أحمد سماعين.. سيرة إنسان" و"يامنة" و"الاسم المشطوب".

٢ ـ قصيدة الخال لا تخلو أبدًا من السخرية اللاذعة، فمنذ عمله الأول "الأرض والعيال" حتى مربعاته الشعرية، تجد خطًّا ساخرًا في أشعاره التي قال في إحداها:

أنا لو بقيت الرئيس هاعيِّن أصحابي

أمَّال هسيبها كده تنهبها غربانكم؟

هلكت ياما لحدّ ما جات على بابي

بقى تطْفحوا انتو الرغيف وأنا أبقى عجانكم؟

سخرية الخال كانت دائمة وملازمة لأشعاره حتى إن بدت أشبه بالكوميديا السوداء، التي بقدر ما تحمل من سخرية تحمل ألمًا كبيرًا، إنها أبدع نكات الأرض ـ كما يقول برنارد شو ـ ويظهر ذلك في قصيدته "الأحزان العادية" حين يقول:

قلت لنفسي وبعدين

راح تفضل كده لامْتى يا غلبان؟

بتدراي إيه؟

إيه باقي تاني عشان تبقى عليه؟

وطنك؟

متباع

سرّك؟

متذاع

الدنيا حويطة

وأنت بتاع!

ولكن هناك تجربة شعرية ساخرة بأكملها كتبها الخال، لكنه تردد كثيرا قبل نشرها، وحين نشرها قال: هذه قصيدة إن جازت التسمية.. كُتبت في ليلة ما.. وطويتُ أوراقها ولم أنشرها شأن قصائد معدودة أخرى ربما خوفًا من "فنطزيتها" الجامحة أو خوفًا مما تقصد إليه القصيدة، وربما لأني لم أكتب شيئا مشابها من قبل.

القصيدة عنوانها "آخر الزَّمْر" وهي من روح الخال الساخرة والمحبة للمرح والنكتة، لكنها لا تشبه أعماله السابقة، لذلك بقيَت بجواره كثيرا قبل أن يعطي لها إشارة البدء بالنشر، وقد جاء فيها:

إسْأل زعيط وصاحبُه معيط

أوهام فَي ضِلّ.. خيالات في حيط

لا تعدِّي بحر.. ولا تجني غيط..

والبوسطجية.. مابيشتكوش

ملايين شكاوي مابيوصَّلوش

وانْ وِصْلوا طبعًا مابيتقروش.

دخلوا في بعض عملوا خليط

واللي علينا مابننساهوش

واللي عليه.. مابيردّهوش..

أهبل لكنُّه عامل غويط

واقف بيرقص وسط الوحوش

وفاكر إنه يقدر يحوش

مابيأتمناش ولا نأمنوش

عايش على إنشالله أو يا ريت

ونِعِم من الرَّقدة عَ الفُروش

ياكل جبل ويشرب مُحيط

إيه آخر الزَّمر إلا طيط؟

٣ـ النبوءة: أيّ قارئ للأبنودي يلحظ أنه يمتلك رؤية نافذة، وبصيرة يحسده كل من يعرفه عليها، فتاريخه الشعري يشهد أنه واحد من أصحاب الكرامات الشعرية (مثل صديق عمره أمل دنقل الذي قال "لا تصالِح" في نوفمبر عام ٧٦ قبل أن يفكر السادات في زيارة إسرائيل) التي تحدثت عن رؤى صارت حقائق واقعة، فقبل ثلاثين عاما من ثورة ٢٥ يناير قال:

وفجأة

هبطت على الميدان

من كل جهات المدن الخرسا

ألوف شبان

زاحفين يسألوا عن موت الفجر

استنوا الفجر ورا الفجر

إن القتل يكفّ

إن القبضه تخفّ

ولذلك خرجوا يطالبوا

بالقبض على القبضه

وتقديم الكفّ

وبعد أشهر قليلة من ثورة يناير وفي أثناء انشغال القوى السياسية وأغلب شباب الثورة بجني ثمار الثورة أطلق الخال مدفعيته الشعرية الثقيلة حين قال:

لو عن سقوط النظام.. لسه النظام ماسقطش!

إيه الفروق بين زمان والوقت؟.. ما تفرقش!!

لكن المدهش في هذه القصيدة ـ أو بمعنى أدق الملحمة ـ أن الخال كان يرى ما سيحدث بعد وصول جماعة الإخوان إلى كرسيّ الحكم رغم أنه حين كتب قصيدته كانت الجماعة تعلن أنه لا نية لها في خوض الانتخابات الرئاسية مطلقا، وفي الوقت نفسه كان الشعب يتعامل مع قادتها بحب، لكن رغم ذلك فجّر قنبلة شعرية لم يلتفت إليها أحد حينها، فقال:

وانت اللي دافعت عنّي ف عَرْكة التغيير

بكره حتقتلني بإيديك في ميدان التحرير

كشَّر بأنيابك السودا.. بلا محاذير

رافع نداك للجهاد.. ويُفَط آيات الرَّبّ

لكن وقلبك عتم مافِيهْش شيء يتحَبّ

ناوي على قتلنا.. خصومك ولاد الكلب

عارفك ماتكرهش في الكون قدّ كلمة شعب

وقدّ (مصر) اللي ياما في عُرفكم.. تِتْسَبّ

قاريك وحافضك أنا.. وانت قاريني كمان

نكنس دروب الوطن تفرشها بالمسامير!!

كانت الصورة التي رسمها الخال خارج المشهد الذي يراه ويتحدث عنه الجميع، كان يشم رائحة صفقات، ويرى ببصيرة الشاعر ما لا نراه، لذلك بمجرد أن عدت إلى البيت اتصلت به وأبديت إعجابي بهذه

الملحمة التي تشرفت بحملها، وسألت الخال عن هذا الجزء بالتحديد من القصيدة: هل من المعقول أن تحدث هذه النبوءة العجيبة؟ هل من الممكن أن يقتل الإخوان مَن وقفوا معهم في ميدان التحرير؟!

وأجاب الخال: ما أنا إلا مجرد ساعي بريد، أنقل ما يأتي لي على الورق، فلا أسعى لكتابة القصيدة ولكني أكتب فقط القصيدة التي تقع في حِجري، وكل ما يأتي في قصيدتي ليس تحليلا سياسيًّا للأحداث الجارية، وإنما هو "هبة" من الله، لذلك يُطلق عليها "موهبة"، وأنها منحة إلهية في لحظة صفاء روحي، فلا يمكن التشكيك في معانيها أو نبوءتها، أما تحليل الأحداث من خلال الحوارات والكلام المرسل فيحتمل الصواب والخطأ، أما في الشعر فالأمر مختلف تمامًا.

هناك قصائد جمعت بين الحسنيين النبوءة والسخرية، ويظهر ذلك في العديد من القصائد لكن أبرزها وأشهرها وأجملها حين قال حاسمًا:

إحنا شعبين.. شعبين.. شعبين

شوف الأول فين؟

والتاني فين؟

وآدي الخط ما بين الاتنين

بيفوت

إنتو بِعتوا الأرض بفاسها

بناسها

في ميدان الدنيا فَكّيتوا لباسها

بانت وِشّ وضَهْر

بطن وصدر

ماتت

وِالرِّيحه سبقت طلعت أنفاسها

واحنا ولاد الكلب الشعب

احنا بتوع الاصعب وطريقه الصعب

والضرب ببوز الجزمة وبسِنّ الكعب

بعد مرور ثلاثة أشهر فقط من ثورة يناير كان الخال يؤكد لكل من قابله، أن هناك ثورة أخرى قادمة حتى إنه قال لي حاسما: "إن ما فعلناه في ٢٥ يناير كان مجرد بروفة لثورة حقيقية ستأتي حتما".

يومها كنت مندهشًا مما يقوله، ومن ثقته المطلقة في ما يطرحه، كأن جهاز الاستشعار لديه قد حسم الأمر قائلًا: "الثورة لازمها ثورة أقوى من الأولى" ثم قال قبل شهرين من ثورة ٣٠ يونيو مخاطبًا الرئيس المعزول محمد مرسي:

وإمتى يا غِيمْ تُقوم مَقْشُوع

ونِرجَع تانى مصريِّين

بِدَال ما نقول رئيس مخلوع

يبارِك ربِّى.. يبْقوا اتنين..؟!

تجلت قدرة الخال على الجمع بين النبوءة والسخرية في "المربعات" الشعرية، وتحديدا حين قال في واحد من أبدع مربعاته الذي كتبه في ١٨ أبريل ٢٠١٣، والذي خاطب فيه الرئيس المعزول حاسمًا وقاطعًا وساخرًا بقوله:

يا ريّس المركب يا حلاوتك

يا اللى سِواقتك عاجباني

من كُتر خوفنا على راحتك

هنشوفلها ريّس تاني!!



السيرة الهلالية

لو لم يفعل الأبنودي شيئا سوى جمعه للسيرة الهلالية لكان هذا يكفيه ويكفينا ويفيض!

لكن السؤال: كيف فعلها الخال؟

كيف ترك الشهرة والنجومية والأضواء وصحبة ألمع وأجمل وأهم نجوم مصر، وقرر أن يبحث عن السيرة الهلالية؟!

كيف ضحَّى بمجد سهل وقريب ومثمر أدبيًّا وماديًّا، واتجه في رحلة شاقَّة استغرقت قرابة ثلاثين عامًا جاب خلالها الوطن العربى؟!

لم يكن مع الأبنودي شيء في هذه الرحلة سوى حبِّه للسيرة الهلالية التي فُتن بها مُذْ كان طفلًا، وجهاز تسجيل أهداه إليه عبد الحليم حافظ، وشرائط حصل عليها من كمال الطويل، وإصرار كبير على تحقيق إنجاز يُخلِّد اسمه، لذلك يردد الخال دائمًا: أنا شاعر "كويس" لكن مصر ستنجب

ذات يوم مَن هو أفضل منّي بكثير، لكن سوف يُذكَر لي على الدوام أنني جمعت هذا العمل العبقري الذي أبدَعَته قرائح شعبنا وحفظَتْه من الضياع".

انطلق الخال في رحلته الأهم بعد نكسة يونيو باحثًا عن السيرة الهلالية، لكن لم يلتفت إليه أحد في مصر والوطن العربي، وظل سنوات يعمل بمفرده وينفق على جمع هذا التراث الإنساني من جنيهاته الهزيلة ـ على حد وصفه.

لكن قبل أن تبدأ رحلة البحث عن "الهلالية" بسنوات طويلة كان الأبنودي يذهب إلى مولد سيدي عبد الرحيم القنائي، ويستمر خمس عشرة ليلة يجلس تحت أقدام المنشدين وشعراء الربابة، ويستمع إلى غناء "الغوازي" ويشاهد فنون المسرح الشعبي والألعاب الشعبية، ويردد الأذكار والمدائح الدينية، ويسمع فصولا من "الهلالية" من شعرائها ومغنّيها وشذرات من رواتها. ومن رواة السيرة المغنون الغجر الذين يحترفون الإنشاد في المناسبات، وهم لا يبدعون مِن عندهم إنما يرددون ما يحفظونه.

أمضى الخال سنوات يجمع "الهلالية" من أفواه الشعراء والرواة والحَفَظَة العاديين في صعيد مصر، ثم اتجه إلى "الدلتا" شمالًا، وبعدها استطاع الحصول على النصوص السودانية والجزائرية والليبية، كذلك نصوص من على حدود تشاد والنيجر لم يجمعها بنفسه، وإنما حصل عليها من دارسين، ومن بعض مراكز فنون شعبية، ثم بدأت رحلاته إلى تونس.

تعرف الخال على عدد كبير من شعراء الهلالية، لكنه يضع الشاعر جابر أبو حسين في مرتبة وحده فهو "شيخ شيوخ السيرة الهلالية" ـ على

حد تعبيره - وله أتباع ومريدون، أما أصدقاؤه فكلهم ماتوا منذ ٨٠٠ سنة! وهم: أبو زيد، والزناتي خليفة، ودياب بن غانم، وغانم الأحمر، وغيرهم من أبطال السيرة الهلالية الذين كان يبكي وهو يتغنى على ربابته بمناقبهم ورثائهم.

وقد سجَّل الخال معه السيرة على مدار ثلاث سنوات كاملة، كان يذهب إليه في سوهاج ثلاثة أشهر، ثم يستريحان ثلاثة أشهر، ثم يحضر "أبو حسين" إلى القاهرة ثلاثة أشهر، وظلا هكذا حتى أنجزا العمل وسجَّل الأبنودي روايته كاملة.

بعدها عاد "أبو حسين" إلى قريته - "آبار الوقف" في مركز "أخميم" - ليموت بعد ثلاثة أسابيع فقط من الانتهاء من تسجيل "الهلالية"، كأنه أكمل مهمته وصار في وسعه أن يستريح - على حد تعبير الخال.

ومثلما اعتمد الأبنودي في رحلته على "جابر أبو حسين" اعتمد أيضًا على "الحاج الضَّوِّي"، وقد التقى الأبنودي، الضَّوِّي للمرة الأولى داخل مقهى ريفي خالٍ من الزبائن!

يعرف الشعراء أهمية هؤلاء الرواة ودورهم الأساسي، لذا لا يذهبون لإحياء الليالي وإنشاد السيرة إلا إذا وجَّه الدعوة إليهم راوية يعرفونه ويثقون به، ومن هؤلاء الرواة يذكر الأبنودي "أبو عنتر" واسمه الحقيقي "سيد غشيمة" الذي يقول عنه الخال: كان يدور في الأسواق راكبا حماره الذي يشبه "شهبة" دياب بن غانم، وفجأة يقف ويأمر حماره أن يرفع قدمه فيطيعه، ويقف لإلقاء جزء من السيرة الهلالية، حتى إذا التفَّ الناس حوله وبدا عليهم التلهف لسماعه، توقف وتركهم ومضى، فإذا استزادوه نَهَرَهم وربما سَبَّهم وهو يقول لهم "إذا كنتم تريدون السماع

فعليكم بدعوة الشاعر جابر أبو حسين؛ فما سمعتموه ليس أكثر من قطرة في بحره، وما قلته هو ما يسقط من ربابته"!

كان الحاج الضَّوِّي، وهو شاعر من قوص، يمسك ربابته ويجلس داخل المقهى ـ الذي لم يكن أكثر من "عشة" من البوص ـ وحين دخل الأبنودي عليه اعتبره الضَّوِّي جمهورًا وراح يُنشد له بصوت أخَّاذ عن "يونس" ودخوله إلى "سوق العصر" في تونس.

لم يتصورا يومها أنهما سيصيران صديقَين، وأنهما بعد ثلاثين عامًا من لقاء المقهى سيذهبان إلى تونس معًا، ويتجولان في القيروان والحمامات وصفاقس وقابس، وسيرى الضَّوِّي سوق العصر الذي كان يصفه في غنائه كأنه رآه ويعرفه شِبرًا شِبرًا رغم أنه لم يكن قد رأى تونس قطّ!

ربما لذلك يظن معظم شعراء السيرة الهلالية أنهم أُلهموا الشعر إلهامًا؛ فالحاج الضوّي حكى أنه سمع ربابة معلقة فوق رأسه على الجدار تعزف وحدها في الهزيع الأخير من الليل لليالٍ متتابعات فعرف أن ما يسمعه هو نداء ليتعلم العزف ويبدأ الإنشاد ويصبح أحد أهم رواة "الهلالية".

والسؤال: لماذا عاشت ملحمة السيرة الهلالية وذهب غيرها؟

والجواب ـ على لسان الخال: لأنها سيرة تسعى إلى توحيد الأمة العربية والاتجاه نحو تحقيق أهدافها، وهي قبل ذلك تجسيد لأحلام البسطاء الذين ينتظرون قائدا مُلهِمًا ومُلهَمًا يُمثل الضمير الشعبي، ويقود الشعوب عبر معارك كبرى إلى تحقيق الوحدة والاستقلال.

ثم إن الملحمة الهلالية حافظة لصورة القيم مثلما يراها البسطاء، ففي مرآتها ترى صورًا للتضحية، والبطولة، والنذالة، والحب، والنفاق، والجبن، والخيانة.

السيرة الهلالية هي التاريخ الشفاهي الذي عاشته الشعوب العربية، وتناقلته شفاهيًا، وحلمت به جيلًا بعد جيل، بعيدًا عن المؤرخين المحترفين، ومحترفي كتابة التاريخ!

فالسيرة تروي وقائع حدثت بالفعل، لكنها تنقلها في سياق دراميّ، وفنيّ، وملحميّ، فهي تحكي عن زحف قبائل هلال، وسليم، ودريد، والأثبج، ورياح، من هضبة نجد ـ التي أجدبت سبع سنين ـ إلى تونس.

كان الزاحفون إلى تونس نحو ٣٦٠ ألفًا، وأدرك المعز بن باديس خطورة الغزوة فقاد الجيش بنفسه.

وكانت معركة حياة أو موت جرت الدماء فيها أنهارًا، وسقط فيها القتلى بالآلاف، وكاد المعز ينتصر لولا خيانة أحد قواده، ويُدعى "زناتة" الذي كسر الجيش، وقلب الدفة لمصلحة القبائل الزاحفة.

فسقط جيش المُعز، وسقطت تونس في أيدي بني هلال.

وقد حدث ذلك منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، إلى أن استطاع عبد المؤمن بن علي إمام الموحِّدين القضاء على فلول القبائل الزاحفة.

لكن رواة السيرة يختلفون في رواية الوقائع، دون الإخلال بها.

فبعضهم يتحدث عن العدوان الذي جرى على تونس باعتبار أن سببه هو الاعتداء على المصلين في مساجد تونس في أثناء صلاة الجمعة على أيدي العوام في زمن المعز بن باديس، ويجعلون الثأر لهذه الواقعة مبررًا للغزو!

بينما يرى بعضهم أن سبب الغزو هو القحط الشديد الذي عانته بلاد

"نجد"، وهذا سبب أكيد لكنه ليس السبب الوحيد؛ لذلك يشتبك في السيرة السبب التاريخي، بالمبرر الديني، بالظروف الطبيعة المحيطة.

أما المصادر التاريخية ـ والكلام للأبنودي ـ مثل ابن خلدون وغيره، فتخبرنا أن القبائل زحفت بسبب الجدب إلى مصر، في زمن الخليفة الفاطمي المستنصر بالله.

وفي الوقت نفسه وقعت ثورة العوام في تونس، واضطر حاكمها المعز بن باديس أن يخلع ولاءه للدولة الفاطمية، ويساند العباسيين.

هنا اشتاط الخليفة الفاطمي غضبًا، وقرر أن يحاربه، فجهَّز له جيشًا ممن وعدهم بالإمارة من بعده حتى يحفظ ويحافظ على ملكه.

لكن السيرة الهلالية بالأساس هي إبداع العوام لتخليد وقائع التاريخ، لذلك تقارب "الهلالية" المليون بيت شعر!

ويعتقد بعض الناس، بسطحية، أن هذه الملحمة خُلقت لتُمجِّد رجلًا اسمه أبو زيد الهلالي ـ والكلام على لسان الخال ـ والواقع أنها عمل ملحميّ تُوزَن فيه الدراما بميزان الذهب، مما يدل على عبقرية شعوبنا وأننا إلى الآن لم ننظر جيدًا إلى إنتاجهم الإبداعي، ولم نتعلم منه، ويبدو أننا لا نريد أن نتعلم أبدًا!

الفصل الخامس

موال النهار

عدَّى النهار

والمغربية جايَّة

تتخفَّى ورا ضهر الشجر

وعشان نتوه في السكة

شالت من ليالينا القمر



شيء من الخوف

في عام ١٩٦٨ كان الفنان صلاح ذو الفقار يعمل منتجًا فنيًّا للأفلام السينمائية، وكان عليه أن يبحث عن قرية تشارك بكل أبنائها في تمثيل فيلم للمخرج حسين كمال.

وظل ذو الفقار فترة يبحث عن ضالته حتى وجدها في إحدى قرى محافظة القليوبية التي وافق عمدتها ولكن بشرط أن يقوم المنتج بإنشاء "هاويس" لأهل القرية، فوافق ذو الفقار على دفع ثلاثة آلاف جنيه تكلفة بناء هاويس للقرية، ووافق العمدة على أن يشارك أهل القرية في الفيلم.

كان هذا الفيلم هو "شيء من الخوف" عن قصة الأديب ثروت أباظة، وبطولة شادية ومحمود مرسي ويحيى شاهين، وحوار عبد الرحمن الأبنودي الذي غيَّر معالم القصة لتخدم الصورة السينمائية البديعة التي رسمها حسين كمال، تلك الصورة المحفورة لـ"عتريس" الذي يقمع أهل

بلدته، لكنه يضعف أمام حبه لـ"فؤادة" التي وقفت مع أهل قريتها ضده، و"فتحت الهاويس".

ذلك المشهد التاريخي الذي لم يشارك فيه مجاميع من الكومبارس، لكن شاركت فيه قرية بأكملها من أجل تلك اللحظة التي انتظرها آلاف الأهالي طويلا من أجل "فتح الهاويس" الذي أعاد الحياة إلى القرية، لذلك جاءت الاحتفالات صادقة وحقيقية وواقعية، وبلا أي ذرة من تمثيل.

هذا الفيلم وحده يكفي كل من شارك فيه فخرًا أنه كان شجاعًا في مواجهة النظام الحاكم وقتها، فالكل كان يعرف أن "فؤادة" ترمز إلى مصر وأن "عتريس" هو صورة لجمال عبد الناصر، لكنه رغم ذلك لم يُمنَع، ولم يُمانع الزعيم عبد الناصر في عرضه، بل إنه هو من وافق عليه.

لكن الذي خلَّد الفيلم وجعله صالحا لكل العصور، ولكل الحكام هو حرفيّته العالية، ومهارة صانعيه الذين لم تحركهم كراهية وحقد بقدر ما حركتهم وطنية وإخلاص وحب شديد للبلد والحرية، جعلت من الفيلم واحدًا من أهم الأفلام في تاريخ السينما المصرية والعربية، وربما لو كان الفيلم مباشرا وانتقد الرئيس بصورة فظّة لصار مثارا للسخرية في ما بعد، وصار نسخة من أفلام هاني رمزي!

لكن لمسة الأبنودي على هذا العمل تحديدا كانت واضحة ومدهشة، فقد أعاد كتابة الحوار الذي كان قد كتبه صبري عزت، وكان الشخص الوحيد الذي سمح له حسين كمال بأن يقوم بإيقاف التصوير إذا وجد أن لهجة الممثلين انحرفت عن المسار الذي رسمه لها، فالشخصيات تكلمت كما أراد الخال، وعبّرت كما يرى، وتحدثت بما قاله لها، فقد كان مسؤولا

عن تحفيظ الممثلين الكبار طريقة النطق السليمة للعبارات التي كتبها.

لكن الغريب أن الأبنودي شارك في هذا الفيلم بالصدفة البحتة!

ففي إحدى المرات كان الأبنودي في زيارة لاستوديو النحاس، وفجأة وجد أمامه حسين كمال يقول له "أنت فين؟ أنا بادوّر عليك.. خُد السيناريو ده اعمل الأغاني بتاعته، بس أنا عايزه بصورة ملحمية مختلفة، ومعاك شادية ومعاك الكورال".

أمسك الأبنودي الورق وقرأ السيناريو والحوار الذي كتبه صبري عزت، لكنه شعر بحاسة الشاعر أن الفيلم بهذه الصورة سيخرج عاديًّا، قد يكون جيدا لكنه ليس ملحميًّا كما يريد حسين كمال، فقرر أن يعيد كتابته دون أن يأخذ رأي أحد أو يستشير أحدًا، فقد كان يدرك أنه لو طلب ذلك من حسين كمال لقابله بالرفض، لأن كل شيء كان جاهزا لبدء التصوير خلال أيام قلائل.

لكن الأبنودي الصعيدي نفّذ ما في رأسه فقط، ولم ينَم أربعة أيام متتالية إلا قليلا، وظل يقظًا بصحبة قهوته، وسجائره ـ التي هجرها في ما بعد إلى غير رجعة ـ وبدأ بالفعل يكتب مشاهد ويحذف أخرى حتى كتب الفيلم من بدايته حتى نهايته وفقا لرؤيته، ونقل الحوار من لهجته البحراوية إلى اللهجة الصعيدية، ومزج بين الأغاني والحوار، وذهب إلى حسين كمال!

لكن قبل أن يذهب إليه طلب منه أن يحضر له شريطًا جديدًا للتسجيل، وتعجب كمال من الطلب قائلًا "ليه انت مش هتقرا الأغاني؟!" لكنه رضخ لطلب الأبنودي حتى يرى ويفهم ما يريده.

وذهب عبد الرحمن الأبنودي إلى منزل حسين كمال في شارع عماد

الدين ووجد حسين كمال في انتظاره، وقد أحضر له كل شيء لتسجيل الأغاني التي طلبها منه، لكن الأبنودي فاجأه وقرأ عليه السيناريو والحوار بدلا من الأغنيات، فصمت كمال ولم ينطق إلا بعد أن انتهى الأبنودي من القراءة، ثم صرخ ـ كعادته ـ قائلًا: "يا لهوى"!!

كان حسين كمال يفكر هل سيغير كل الترتيبات التي قام بها، لكنه حسم أمره سريعا، واتصل بمدير الإنتاج صلاح ذو الفقار، وقال له: "تعالى يا صلاح الغي كل الورق اللي ادّيته للناس، ووزع شرايط على الناس، مافيش وقت نعمل ورق".

كان الهدف من هذه الطريقة هو أن يحفظ كل الممثلين أدوارهم بنفس الطريقة التي ينطق بها الأبنودي الكلمات، بدلا من قراءة الورق التي لن تفيد في ظل السرعة المطلوبة، وبالفعل طبع عددا من النسخ ووزّعها على الممثلين الكبار محمود مرسي وشادية ويحيى شاهين ومحمد توفيق وغيرهم من نجوم هذا العمل الذي ظهر فيه الفنان محمود ياسين لأول مرة.

وبدأ العمل في الفيلم بصورته الجديدة كما خطه الأبنودي على الورق، وجاء بليغ حمدي الذي أبدى اندهاشه الشديد مما فعله الأبنودي وقال له: "أنت عملت معجزة.. حد يكتب سيناريو وحوار فيلم في يومين"، ثم جلسا معًا لبدء العمل في الأغاني البديعة التي شاهدناها في الفيلم وحفظناها من كثرة ما رددناها "أهوه أهوه بالضحكة ده بالخلقة ده مالي البلد دي الخوف" لكن الأبنودي اشترط أن يُكتب اسم السيناريست صبري عزت قبل اسمه حفظًا لحقه ولجهده الذي بذله قبل أن يأتي الخال ويغير ملامح السيناريو والحوار، لكن رغم كل ذلك لم يحصل عبد الرحمن الأبنودي على مليم واحد مقابل هذا الفيلم، وحصل فقط على مقابل كتابة الأغاني!

لكن المدهش أن فيلم "شيء من الخوف" الذي ننتظره ونشاهده إلى الآن لم ينجح حين تم عرضه في السينما للمرة الأولى وذلك بعد عامين فقط من النكسة، فقد كان حزن الناس وقتها يطغى على المشهد، بل إن أغلب الناس كانت تنصرف إلى الأفلام الكوميدية التي كان يتم إنتاجها بكثافة في هذا التوقيت.

رغم ارتباط الناس بفيلم "شيء من الخوف" وانتشاره الجماهيري الواسع في ما بعد، فإن عبد الرحمن الأبنودي كان يرى أن كتابة السيناريو والحوار ليست مهنته وأنه "مجرد ضيف" لكنه في الوقت ذاته لم يَغِبْ عن المشهد.

فبعد فترة كانت فاتن حمامة قد قررت أن تصنع ثلاثة أفلام تستغرق وقت فيلم واحد، ووقع اختيارها على كتاب "المسرح والمجتمع" لتوفيق الحكيم، وبالتحديد على مسرحية "أغنية الموت" وقررت تحويلها إلى فيلم تليفزيوني، واتفقت مع المخرج سعيد مرزوق على أن يكتب الأبنودي السيناريو والحوار.

وفي اليوم التالي اتصل مرزوق بالأبنودي وقال له: "فاتن حمامة تريد أن تراك"، واندهش الخال، فلم تكن تربطه أي علاقة بها قبل ذلك، وبالتالي لم يكن يتخيل أنها تعرفه وتطلبه بالاسم، خصوصا أن شهرته كشاعر أكبر وأعمق بكثير من شهرته ككاتب سيناريو وحوار، ولكنه أدرك في ما بعد أنها اختارته بعد أن شاهدت "شيء من الخوف".

والتقى الأبنودي مع فاتن حمامة في شقتها بعمارة ليبون على شاطئ النيل بالجزيرة، وجلسا معًا لساعات طويلة، في حجرة ذات طراز عربي يشبه بيته في المهندسين، وقالت له: اقرأ مسرحية أغنية الموت، واكتب

السيناريو والحوار والأغنية، أريد نصًّا كاملا، وأنا سأقوم بدور "عساكر".

وبعد ثلاثة أيام فقط كان الأبنودي قد انتهى من كتابة نص سينمائي كامل!

وقد رسم الخال صورة سينمائية لمكان يشبه بيت جدته "ست أبوها" في أبنود: الغرفة، السلم الطيني، السور المبنيّ بأزيار الماء المقلوبة، والملابس والوشم على الوجوه، وباب البيت ذا الضَّلفة الواحدة الذي يُصدر عند فتحه وإغلاقه أنينًا يشبه أنين السواقي، وكانت المرة الأولى التي تخرج فيها مشاهد سينمائية تتطابق مع الواقع.

أُخِذت فاتن حمامة بهذا العالم الذي استحضره الأبنودي على الورق، وبقدرته على تحويل المسرحية إلى واقع من لحم ودم، وأصرت على أن يذهب معها إلى بيتها لتدريبها على طريقة النطق، ولتعرف منه طبيعة هذا العالم الذي لم تسمع عنه من قبل، بل إنها كانت ترفض بدء التصوير في الاستوديو إلا إذا حضر عبد الرحمن الأبنودي، حتى أطلقوا عليه لقب "الخبير الأجنبي"!

كان من الممكن لهذه التحفة الفنية الفريدة أن يكون حظها أفضل، لولا أنه تقرر عرضها في صباح أول أيام العيد، ففزع أهل المرح من قيادات التليفزيون - على حد تعبير الخال - وكتبت رئيسة التليفزيون آنذاك تأشيرة عجيبة نصها "كفانا كآبة"!

ولم تلتفت إلى أهمية هذا العمل الفني الذي جمع بين العمالقة توفيق الحكيم وفاتن حمامة والأبنودي، ومنذ ذلك اليوم لم يُذَع هذا العمل، ولو على سبيل الخطأ!

لكن لم تتوقف تجارب الأبنودي التي تظهر على استحياء رغم أهميتها،

فقد طلب منه المخرج خيرى بشارة تحويل رواية صديق عمره الأديب يحيى الطاهر عبد الله إلى فيلم سينمائي، وكانت هذه الرواية هي "الطوق والإسورة" لكن الأبنودي لم يُعجَب بهذه التجربة رغم جمالها، وثناء النقاد عليها.

فقد كان يرى أن خيري بشارة وقع في خطأ كبير حين استعان ببعض فرق التمثيل بالأقصر لتحفيظ الممثلين، ولهجة الأقصر تختلف تمامًا عن تلك اللهجة التي كتبها الخال، بل إن الأبنودي يُصرّ على أنه لم يفهم بعض الكلمات التي قيلت على لسان بعض الشخصيات رغم أنه كاتب الحوار!

مرَّت سنوات طويلة، وبعدها وافق الأبنودي على كتابة حوار مسلسل "وادي الملوك" المأخوذ عن قصة "يوم غائم في البر الغربي" للأديب محمد المنسي قنديل، وكانت هذه هي التجربة الأولى للخال في الأعمال الدرامية، بعد أن كتب السيناريو محمد الحفناوي، ورغم إشادة الجمهور والنقاد بالمسلسل، فإن الأبنودي قرر أن تكون التجربة الأولى والأخيرة!

فقد اكتشف أن كتابة سيناريو وحوار لمسلسل مكوّن من ثلاثين حلقة عمل شاق ويحتاج إلى جهد جبار وتفرُّغ تام، بل إنه يقول: "أعتقد أنه لولا قلة حظوظ المبدع أسامة أنور عكاشة في الرواية، وعدم شهرته في هذا المجال، ما كان اتجه إلى كتابة المسلسلات، ولخسرنا أجمل وأهم أعمال في تاريخ الدراما العربية".

تحت الشجر يا وهيبة

تَكرَّر هذا السؤال كثيرا لكنه في كل مرة كان يحمل جديدًا!

سأل صلاح جاهين، الأبنودي: "مافيش حاجة في جيبك أنشرها؟ عشان مش قادر أرسم"، فرد عليه الخال: كاتب عن دودة القطن.. تلزمك؟، "ماتقولش حاجات مقسومة.. ماتقولش الأيام سُود.. قُوم من أحلاها نومة.. وانجد قطنك من الدود".

فنشرَها جاهين، وحدث ما لم يتوقعه أحد.

فبمجرد نشر هذه الكلمات في مربع عمنا جاهين في جريدة "الأهرام"، سمعها الخال بعد أيام في الردايو!

كان الأبنودي يسير بصحبة صديقيه صلاح عيسى وسيد خميس، فسمع أغنية في الراديو فقال لهما "مش دي شبه الكلام اللي أنا كنت كاتبه

في الجورنال؟!" ثم سمعوا المذيع في الراديو يقول "أغنية انقذ قطنك.. غناء: فاطمة علي.. تأليف: عبد الرحمن الأبنودي".

كانت هذه المرة الأولى التي يسمع فيها الأبنودي كلماته مُغنَّاة، واندهش كيف وصلت إلى الإذاعة؟ ومَن الذي اختارها؟ وكيف تحولت لأغنية متكاملة بهذه السرعة؟

والجواب كان عند جاهين، فعندما حكى له الأبنودي ما حدث، قال له: الأستاذ الشجاعي طلبها، وهو المسؤول عن تحويل الأشعار إلى أغانٍ للإذاعة، ويريد أن يقابلك. وبالفعل قرر الأبنودي أن يذهب لمقابلته، ولكنه لم يجد ملابس مناسبة ليذهب بها إلى الإذاعة لأول مرة في حياته!

واقترح عليه صديقه الملحن إبراهيم رجب أن يعطيه قميصا جديدا، ومعه بدلة جديدة، اشتراها أخوه، لكن البدلة كانت مثيرة للسخرية بلونها الفسفوري، فبمجرد أن وصل الأبنودي إلى مبنى الإذاعة، والتقى محمد حسن الشجاعي، سأله: انت مين؟! فأجابه الخال: عبد الرحمن الأبنودي، فعلّق قائلًا: إيه اللي انت عامله في نفسك دا؟ انت طاووس؟

فردّ عليه الأبنودي: أنا لبستها علشان أقابلك، فضحك وقال: يا راجل كنت جيتلي بهلاهيلك كان أحسن لي. المهم، تعرف تكتب أغاني؟

الأبنودي: أيوه.

الشجاعي: بس تبطل اللغة اليمني اللي بتكتب بيها.

الأبنودي: حاضر.

وتركه الخال ومضى، وحكى لصديق كفاحه سيد خميس ما جرى، فأصرّ خميس على أن يحتفلا بمناسبة أن الأبنودي صار كاتبًا للإذاعة

بـ"أكلة كباب"، وبعدها عادا إلى البيت الذي كان عبارة عن عوامة في منطقة الكيت كات، وأغلق الخال الباب على نفسه، ليتفرغ للكتابة، فكتب ثلاث أغانٍ دفعة واحدة، وكانت بالترتيب: الأولى عن السد العالي، وتقول كلماتها "اتمدّ يا عمري اتمدّ.. واعيش وأفرح واشوف بعنيّا السدّ" وغناها محمد قنديل، والأغنية الثانية "بالسلامة يا حبيبي بالسلامة" التي تذاع كل صباح، أما الثالثة فكانت "تحت الشجر يا وهيبة".

وذهب للشجاعي، وعرض عليه ما كتبه، فوافق على الأغنيتين الأولى والثانية، وعلّق على أغنية "تحت الشجر يا وهيبة" قائلًا: "أنا مش قلت لك تبطل الكتابة اليمني دي.. مين اللي هيغنّيها؟!" فردّ عليه الأبنودي حاسمًا وقاطعًا: محمد رشدي اللي غنّى "قولوا لمأذون البلد".

لكن الشجاعي فاجأه قائلًا: "يا ابني دا حصلت له حادثة في طريق السويس، واتكسر، وقاعد في بيتهم"، فردّ الأبنودي بحدّة: "هو اتكسر ولّا صوته اللي اتكسر، بس سيبني أروح له".

وفي أثناء مناقشات الشجاعي والأبنودي دخل عليهما بليغ حمدي فقال له الشجاعي: سلم عليه كويس ده هيكون له شأن كبير ـ يقصد الأبنودي ـ فلما عرف بليغ أنه الأبنودي احتضنه، وخرجا صديقين.

وذهب الخال ليبحث عن رقم تليفون محمد رشدي، ووصل إليه عن طريق معهد الموسيقى، واتصل به، لكن رشدي كان في أسوأ حالاته المزاجية، فعامله بقرف شديد ـ على حد وصف الأبنودي ـ ثم أعطاه ميعادا على قهوة التجارة في شارع محمد علي، وفي الميعاد جاء بمنتهى "الألاطة"، وسأله "رشدي" بتعالٍ شديد "عايز إيه؟!"، فقال له الأبنودي: "أنا جاي لك من عند الأستاذ الشجاعي".

فهنا بدأ يتكلم وتتغير معاملته؛ لأن المعروف عن الشجاعي أنه رجل شريف جدًّا وحاد، ودخل الأبنودي في الموضوع مباشرة وأبلغه أنه كتب أغنية له، ويريد أن يغنيها للإذاعة.

ثم أضاف قوله: "لكن مش دا اللي أنا جاي لك علشانه.. أنا جيت عشان صوتك ومكانتك.. وسيبك بقى من القعدة دي، وتعالى نتمشّى".

وسارا معًا حتى وصلا شارع الشريفين في وسط البلد، وطوال سيرهما ظل الأبنودي يتحدث عن الفن الشعبي، وأهميته للبلد في هذه المرحلة، وأن هذا زمن العمال والفلاحين، قائلا لمحمد رشدي: ده زمنك أنت مش زمن عبد الحليم حافظ.

كان محمد رشدي صامتًا أغلب الوقت لكن بدا عليه أن الطاقة السلبية التي كان مشحونًا بها بدأت تغادر جسده، وقال للخال: "دا أطول مشوار مشيته بعد الحادثة"، ثم أخذ تاكسي وعاد لبيته، ومعنوياته في السماء.

لكن ظل الشجاعي محتفظًا بالأغاني التي كتبها الأبنودي، ويعرضها على الملحنين لتلحينها إلا أغنية "وهيبة" حتى جاء عبد العظيم عبد الحق وقال: "يا سلام! مين كتب دي" فردّ عليه الشجاعي: عبد الرحمن الأبنودي، فقال له عبد العظيم: "دا نَصّ ماحصلش"، فقال الشجاعي: "ما انتو صعايدة زيّ بعض"!

ولحنها عبد العظيم عبد الحق، وغناها محمد رشدي، وصارت أكبر نقطة تحول في حياته، ووقف على المسرح ونسي آلام قدمه، وأصبح يغنّيها في كل حفلة، وأعادته "وهيبة" إلى الحياة مرة أخرى، وصار أشهر مما كان، وأفضل مما تمنى، وصار لا يستغني عن الأبنودي أبدًا، فقد شعر بأنه أنقذ مستقبله الفني.

وتغيَّرت حياة محمد رشدي، وتغيَّرت أيضًا حياة الأبنودي، فبعد "وهيبة"، طلب محمود حسن إسماعيل ـ أحد أهرامات الشعر ـ مقابلة الخال، وقال له: "إيه الجمال اللي انت بتكتبه دا، انت بتكتب كلام فوق مستوى الناس دي".

ارتبط الأبنودي في هذه المرحلة ارتباطًا وثيقا بمحمد رشدي، وكوّنا ثنائيًّا مهمًّا، لكن شهرة هذا الثنائي تضاعفت بعد أغنية "عدوية"، ولكن المفاجأة مَن هي عدوية تلك الملِهمة لهذه الأغنية؟!

عدوية خادمة تعمل بمنزل الملحن عبد العظيم عبد الحق، لكن الأبنودي رأى فيها صورة البنت القروية المصرية ذات الوجه الصبوح، بضفائرها الطويلة، وكانت ـ في نظره ـ تشبه رسومات الفنان هبة عنايت التي كانت تتصدر مجلة "صباح الخير" حينذاك.

وحين جاءت عدوية تقدم الشاي للأبنودي نظر إليها، وقال: "الله.. اسمك إيه؟" فقالت: "عدوية"، فقال لها: "طيب يا عدوية هاكتبلك أغنية".

أسبوع واحد فقط، وجاء الأبنودي إلى صديقه عبد العظيم وقال له "عايزك تلحن أغنية عدوية"!

فاندهش عبد العظيم عبد الحق، وحاول التهرب من الأبنودي، وقال له: "مش قادر أتخيّل البنت الشغالة في الأغنية دي ولا الكلمات لايقة عليها".

في هذا التوقيت ظهر بليغ حمدي، وسأل الأبنودي: "بتعمل إيه دلوقت؟ مافيش حاجة جديدة؟"، فقال له الخال: "باعمل أغنية لعبد

العظيم عبد الحق عن بنت بتشتغل عنده"، فعلق بليغ ساخرا "هو كل حاجة عبد العظيم عبد الحق" وسمع الأغنية وأعجبته، ولحَّنها ونجحت نجاحًا مدويًّا، بقيت آثاره معنا حتى الآن.

وتصدر الثلاثي رشدي وبليغ والأبنودي المشهد في الساحة الفنية.

أنا برضه عبد الحليم حافظ!

.. ولكن حدث ما نقل الأبنودي وبليغ من رشدي إلى حليم!

ففي أحد الأيام كان الخال في استوديو "صوت القاهرة" بصحبة محمد رشدي، وبليغ حمدي، وفرقة صلاح عرام، يسجلون أغنيتَي "بلديات" و"وسّع للنور".

وفجأة وجد أمامه اثنين يرتديان بدلتين أنيقتين، وتختفي ملامح وجهيهما خلف نظارات سوداء ضخمة، وقال أحدهما بنبرة حادة موجها كلامه إلى الخال: "حضرتك الأستاذ الأبنودي؟ من فضلك عايزينك معانا شوية"!

فسار معهما بهدوء، وقال لبليغ بالإشارة من خلف زجاج الاستوديو ما معناه: "أنا معتقل.. ابقى ادفع لي إيجار الشقة"، وكان وقتها يسكن في عمارات أوديون، لكن بليغ ضحك، بل إنه كاد يسقط على الأرض من

كثرة الضحك، وظل على هذه الحالة حتى غادر الأبنودي مع الرجلين الغامضين، بينما الأبنودي في شدة الضيق والغيظ مما يفعله صديقه بليغ الذي لا يخفي فرحته.

وخرج الثلاثة من الاستوديو، وكانت سيارة "كاديلاك" في انتظارهم، وركب الثلاثة، وركب أحدهم بجوار الأبنودي، والثانى بجوار السائق، والكل صامت، لا كلمة، لا تعليق، لا همسة، لا شيء.

ومرّت السيارة بجوار مبنى وزارة الداخلية في لاظوغلي ولم تقف، فقال الأبنودي لنفسه "أكيد عندهم أماكن كتير.. همّا هيغلَبوا"!

لكن فجأة وقفت السيارة أمام عمارة ضخمة في الزمالك، وكان يقف أمامها شرطة، فظن الأبنودي أن المخابرات هي التي ألقت القبض عليه، ودخل العمارة، وسار إلى الأسانسير، وصعد معهم حتى وصل إلى شقة ظن أنها مكتب للمخابرات، ورنّ أحدهم الجرس، وانفتح الباب.

فوجد الأبنودي أمامه رجلًا نوبيًا يرتدي طربوشًا وقفطانًا أبيض وحزاما أحمر، وبمجرد أن وطئت قدماه الشقة، وجد صالة كبيرة بها سجاد لم يرَ مثله قط، وفوتيهًا ضخمًا يجلس عليه شخص نحيف، لكن ملامحه غير واضحة خلف الفوتيه.

فجأة قام هذا الشخص، وجرى نحو الأبنودي ليعانقه، ويقول له "عبد الرحمن.. أنت جيت؟".

فإذا هو عبد الحليم حافظ!

فأبعده الأبنودي عنه قليلا، وقال له: "أنت عبد الحليم حافظ؟" فردّ عليه: "أيوه يا سيدى.. أنا عبد الحليم"، فقال له الخال: "أمّال مين ولاد الجزمة دول اللي سيّبوا رُكبي؟!".

وجرى عبد الرحمن خلفهم في الشقة، وهم يقولون له: "واحنا مالنا ما هوّ اللي قال".

ويضيف الخال: لكن عبد الحليم منعني عنهم، وأخذني بالأحضان والقُبلات، وظللنا نضحك معًا لساعات طويلة، ثم قال لي "عايزك تكتب لي أغنية".

ثم أمسك بسماعة التليفون، واتصل بأحد الأشخاص، وقال له: "تعالى.. عبد الرحمن الأبنودي وصل"، فحضر بعد دقائق كمال الطويل ورحّب بالأبنودي بحرارة بالغة، ثم جلس الثلاثة "حليم والطويل والأبنودي" يتحدثون عن الغناء، وقال عبد الحليم للأبنودي "أنا عايز أغنية لعيد ثورة يوليو".

فردّ عليه الخال: "أولا: أنت وصلاح جاهين وكمال الطويل رمز لهذا العيد، ولهذا النوع من الغناء، ثانيا: صلاح جاهين برّه بيتعالج، وأنا مش هاخون غيابه، صلاح صديقي، ثالثا: أنا مش كاتب سياسي، فمش هتلاقيني في يوم باكتب سياسة، فمن فضلك استبعد هذا الأمر".

فنظر حليم إلى الأبنودي وقال: "طيب وبعدين إحنا مزنوقين عبد الناصر منتظر يسمعني.. نعمل إيه؟".

فردّ عليه الأبنودي قائلًا: صلاح عامل مجموعة قصائد منها "اتكلموا" وأنا ممكن آخدها، وأعملك المونتاج بتاعها، وأسلم لك لها نص رائع".

وبالفعل اتفقوا على هذا الحل للمأزق، لكن صلاح جاهين عاد من رحلة العلاج، ومعه أغنية عيد الثورة "يا أهلًا بالمعارك".

كانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها الأبنودي، عبد الحليم

حافظ، وأصر حليم على أن يمكث الخال معه في بيته، ورأى الأبنودي ديوانه الأول "الأرض والعيال" في غرفة نوم حليم وبجوار سريره ـ على حد وصف الخال ـ وفرح بشدة، وقال له: "أنا عايزك تغنّي لي أغنية عن العدوان الثلاثي". فرد عليه عبد الحليم "بس إحنا سنة ٦٤!!"، فقال له الخال: "ما انت كان المفروض تغنّيها لي من زمان وأنا زعلان إنها فاتتني"، فقال له:"خلاص هاتها نلحنها"، فردّ الأبنودي: "هيّ جاهزة وعبد العظيم محمد ملحَّنها"، فضحك حليم وقال مازحًا: "أنت كمان عايزني أغنِّي لغير اللي باغنِّي ليهم!"، وبالفعل غنَّاها عبد الحليم في عام ١٩٦٦، وكانت أغنية "الفنارة".

لكن في نفس الجلسة كان عبد الحليم واضحا وجادًّا حين قال موجها كلامه إلى الأبنودي: "أنا عايز أغنّي اللغة بتاعتك دي علشان عاجباني.. لكن أنا ماقدرش أقول المسامير والمزامير زي صاحبك ـ يقصد أغنية "عدوية" التي غناها محمد رشدي.

واستطرد حليم قائلًا: أنا برضه عبد الحليم حافظ.

فكان رد الخال جاهزًا، كأنه كان في انتظار تلك اللحظة فقال حاسمًا: طيب هنعمل أغنية "التوبة" بس مع بليغ.

وكان حليم حينذاك مختلفًا مع بليغ، لكن الأبنودي كان يرى أن بليغ هو الأنسب لهذه الأغنية التي لم يكن قد كتب كلماتها بعد!

وذهب الأبنودي لبليغ وأخبره بما حدث، لكن بليغ قال له: "بس أنا وعبد الحليم بينّا زعل"، فرد عليه الأبنودي: "يا سيدي لا بينكم ولا حاجة هو عبد الحليم حافظ وأنت بليغ حمدي"، فصمت بليغ ثم قال: "طيب خلاص علشانك أنت".

وذهب الأبنودي وبليغ إلى حليم، وبمجرد أن رأى بليغ، حليم زال كل شيء، وأكلا وشربا وضحكا معًا، ولم يتحدث أحدهما إلى الآخر ولو معاتبًا، وفي اليوم التالي بدأ العمل في أغنية "أنا كل ما أقول التوبة يا ابويا ترميني المقادير".

والمدهش أن الأبنودي، ذهب إلى الاستوديو، ولم يكن قد انتهى من كتابتها، لكنه ارتجلها وهو يجلس مع بليغ حمدي، يكتب "كوبليه" ثم يلحِّنه بليغ، وهكذا، حتى انتهت واحدة من أشهر أغاني حليم وبليغ والأبنودي.

لكن حين جاء موعد تسجيل الأغنية كان عبد الحليم خائفًا ومتوترًا في أثناء التسجيل، فقد كان يشعر بأنه يغيّر جلده كله، لدرجة أنه سجلها مرتين ليطمئن قلبه.

لكن بعد هذه التجربة دخل الأبنودي السجن، ولم يكن قد أتمّ قصيدة أخرى، فقط كان قد كتب "أنصاف أغانٍ" استكملها حليم بمؤلِّفين آخرين، بعدما استأذن الأبنودي، الذي وافق على الفور، وقال لحليم: "كمل مالكش دعوة بيّا"، وقد حدث هذا أيضا مع فايزة أحمد؛ إذ أكمل شعراء آخرون أغنيات للخال رشحهم لاستكمالها!

لكن بعد خروج عبد الرحمن الأبنودي من السجن في أبريل ١٩٦٧ تعاون كثيرا مع عبد الحليم لكن الظروف التي عاشتها مصر في هذا الوقت طغت على أي شيء وكل شيء.

رغم الحالة التي كانت تعيشها مصر حينذاك فإن الأبنودي وحليم كانا لا يفترفان في هذا التوقيت حتى إنهما سمعا خطاب التنحي معًا في بيت عبد الحليم، وكان معهما أحمد رجب وكمال الطويل وبليغ حمدي

ومجدي العمروسي، ووقعت الصدمة فوق رؤوسهم جميعًا، وهرولوا إلى الشارع وانضمّوا إلى الملايين التي خرجت تطالب عبد الناصر بالتراجع عن قرار التنحي.

لكن لم يكن ليسمح عبد الحليم أن يستسلم لحالة اليأس التي أصابت الجميع، وأن تتسلل إلى قلبه، وفنه، فذهب إلى الأبنودي، وقال له: "إحنا هنقعد كده من غير أغاني"، فردّ الخال: "لو عملنا أغنية مافيهاش إننا دخلنا حرب وانهزمنا، هننضرب بالجزم".

فقال حليم ساخرا: "طيب ماتعمل، أنت مش عاملّي ثوري وبتدخل السجن ولما ييجي أوان الثورية تطلع مش ثوري"!!

فأعطى الأبنودي لحليم ورقة فيها قصيدة قد كتبها قبل النكسة، وتقول كلماتها:

عدَّى النهار

والمغربية جايَّة

تتخفَّى ورا ضهر الشجر

وعشان نتوه في السكة

تاهت من ليالينا القمر

وبلدنا على الترعة

بتغسل شَعْرها

جانا نهار

ماقْدِرْش يدفع مهرها

حين قرأ حليم هذه الكلمات رقص فرحًا، واتصل ببليغ حمدي وقال له "احضر فورًا"، وتفرغ الثلاثة لتحضير "موَّال النهار".

وفي أثناء التحضير للأغنية، ظل عبد الحليم يحلم لمدة ثلاثة أيام أن الناس تحمله في ميدان التحرير، وهو يرتدي جلبابا أبيض ويغنّي "عدَّى النهار".

كانت "عدَّى النهار" مثل السحر، غيرت نفوس الناس، بل إنها كانت ترفع معنويات عبد الناصر شخصيًّا لدرجة أنه كان يتصل برئيس إذاعة صوت العرب ويسأله: "فين أغنية عدَّى النهار؟!".

لكن بعد "موال النهار" ظل الأبنودي لسنوات يبحث ويجمع السيرة الهلالية ذلك التراث البديع الذي لم نقدره حق قدره، وعاش الخال متنقلا بين البلدان، ولم يلتقِ عبد الحليم حتى حدثت معجزة نصر أكتوبر، فعاد ليعملا معًا في آخر تعاون بينهما "صباح الخير يا سينا"، حينها كان عبد الحليم قد وصل إلى الأمتار الأخيرة في رحلة مرضه، وقال للأبنودي: ماتزعلش منّي أنا غنيت وأنا تعبان جدًّا، فردّ عليه الخال: انت غنيت من القلب وصوتك كان كله إنسانية وعذوبة لم أرَها من قبل.

وسافر حليم بعد التسجيل مباشرة إلى إنجلترا، وذهب الأبنودي ليودّعه قبل أن يتجه إلى المطار، لكنه لم يكن يعلم أنه اللقاء الأخير.

ورحل عبد الحليم، وودّعه الخال إلى الآخرة، ورثاه الأبنودي قائلًا:

فينك يا عبد الحليم

كتبت سطرين

بس كنت حزين

أدّي ورقتى لمين

فينك

نغنّي تاني موال النهار

يا صاحب الرحلة ف طريق الشوك

أنت مامُتّش

همّا شِبْعوا موت

المسألة مش صوت

المسألة

هَمّ الجميع يتحضن

المسألة

تترجم المعاناة.. وطن

المسألة أمّتنا في التّيه

تفتكر

وتنتفض

وتعود

تنفض غبار اليأس

غضب أم كلثوم!

أغضبَ عبد الرحمن الأبنودي، أم كلثوم مرة واثنتين وثلاثًا!

المرة الأولى: جاء بليغ حمدي إلى الأبنودي، وهو في غاية السعادة، وقال له: "افرح يا عم.. أم كلثوم هتغنيلك".

فردّ الأبنودي بهدوء: "هتغنيلي إيه؟".

بليغ فَرِحًا: "بالراحة يا حبيبي".

الأبنودي ساخرًا: "بقى أم كلثوم هتغني أغنية اسمها "بالراحة يا حبيبي" أنت اتجنّيت ولّا إيه؟! صداقتنا كوم والأغنية دي كوم، أم كلثوم عايزة تغنّي لي أكتب أغنية تليق بيها وبيًّا وبيك".

بليغ مندهشًا: "طب أنا دلوقتي أقول لأم كلثوم إيه؟!".

الأبنودي: "قول لها هاعمل حاجه تليق بيكي".

رفض الأبنودي رفضًا قاطعًا وحاسمًا، وبرر ذلك قائلًا: "هذه الأغنية واحدة من الأغاني المسلية التي كنا نكتبها لإذاعة الكويت حتى تظل في الظل بعيدا عن الأضواء، ولا يتم احتسابها علينا أمام الجمهور والنقاد، خصوصًا أن كلمات الأغنية كانت تقول "بالراحة يا حبيبي.. كلّمني بالراحة.. دا أنا مشيت يامة علشان أشوف راحة.. يا ماليني حِنيّة ومودة وسماحة.. عايز تريحني كلمني بالراحة".

كان الأبنودي يرى أن كلمات هذه الأغنية أقل من قيمة ومكانة أم كلثوم التي كان يودّ في أول تعاون بينهما أن تكون في أغنية تليق بمكانتهما، وتضيف إلى رصيدهما.

لكن أم كلثوم لم تغفرها للأبنودي، وشعرت أنه يرفض الغناء لها، خصوصًا أن الأبنودي في ذلك التوقيت كان قد وصل إلى أعلى هرم النجومية مع عبد الحليم حافظ، وكانت أم كلثوم تريد الاستفادة من موهبته في إضافة لون جديد إليها، مثلما فعلت مع بليغ حمدي الذي استعانت به بعد أن نجح وتألق مع عبد الحليم، فأضاف إليها نكهة جديدة.

المرة الثانية: لم يكتفِ الأبنودي بما فعله في المرة الأولى حين رفض غناء أم كلثوم أغنية "بالراحة يا حبيبي"، لكنه عاد وكررها!

كان الأبنودي يجلس مع عبد العظيم عبد الحق في بيته حين قامت ثورة اليمن، ويومها كان الاثنان يقومان بعمل تترات المسلسلات القديمة الرائدة، وفي أثناء تناوُل طعام العشاء قال له: "ما تعملّي كلمتين عن ثورة اليمن"، فكتب إرضاء له أغنية، وأعطاها له.

وفى اليوم التالي، في أثناء زيارة الأبنودي لصلاح جاهين، سأله جاهين

كعادته: "ماعندكش حاجة جديدة؟" فقال له: عامل حاجة عن ثورة اليمن بس مضحكة شوية. لكنها أعجبت جاهين وقال له: "دي جميلة" ونشرها في "مربعه" في جريدة "الأهرام".

وكانت الصدمة!

اتصل وجدي الحكيم بالخال صباحًا، وطلب منه أن يأتي سريعا إلى مبنى الإذاعة، وحضر الأبنودي والتقى الأستاذ عبد الحميد الحديدي مدير الإذاعة، وبدأ الحوار:

الحديدي: أم كلثوم قررت تغني كلامك عن ثورة اليمن.

الأبنودي: يا نهار أسود!

الحديدي: حد أم كلثوم تغني له، ويقول يا نهار أسود؟!

الأبنودي: طبعًا يا نهار أسود، أنا كنت عند عبد العظيم عبد الحق وكتبت له الأغنية دي علشان طلبها مني.

وجدي الحكيم: أنت مجنون؟! عبد العظيم مين.. بنقولك أم كلثوم.

الأبنودي: ماليش دعوة ده صاحبي ولا يمكن أخونه.

فاتصل الحكيم وعبد الحميد بالملحن عبد العظيم عبد الحق، وطلبا منه أن يتنازل عن الأغنية لأم كلثوم، فرفض واشترط أن يقوم بتلحينها لها!

فصُدمت أم كلثوم عندما علمت بما حدث، وقالت "يعني أنا في مقارنة مع عبد العظيم"!!

المرة الثالثة: دائمًا التالتة تابتة، فبعد ما فعله الأبنودي في المرتين

السابقتين مع سيدة الغناء العربي، صار من الصعب أن تفكر في الغناء له، أو تطرح اسمه بينها وبين نفسها!

لكن حدث ما جعلها تعيد تفكيرها للمرة الثالثة، ففي أثناء حرب ٥ يونيو كان أغلب المطربين والمؤلفين والملحنين يجتمعون داخل مبنى الإذاعة، فعبد الحليم، وبجواره أم كلثوم، وعبد الوهاب، وفايزة، ونجاة، ومعهم كمال الطويل وبليغ حمدي، والأبنودي، وغيرهم من نجوم الصف الأول في الغناء والتلحين والتأليف.

لكن فجأة سمعَتْ أم كلثوم، عبد الحليم يُدندن:

ابنك يقولك يا بطل هاتلي نهار

ابنك يقولك يا بطل هاتلي انتصار

ابنك يقول أنا حواليَّا الميت مليون العربية

ولا فيش مكان للأمريكان بين الديار

ابنك يقولّك يا بطل هاتلي نهار

وقررت سيدة الغناء أم كلثوم أن تغني هذه الكلمات، وقالت لكمال الطويل: "أنا عايزة أغنّي الأغنية دي".

الطويل: "الصعيدي اللي هناك هو اللي كاتبها وأشار إلى الأبنودي".

أم كلثوم: لأ.. ده بيكرهني.. روح أنت قوله.

فذهب الطويل إلى الأبنودي، وروى له ما حدث لكن الخال رد عليه قائلًا: "دي تالت مرة أم كلثوم تعمل فيّا الحركة دي.. وعموما أنا ماليش

دعوة روح قول لعبد الحليم.. إذا كنت لم أضحِّ بعبد العظيم عبد الحق هل معقول أضحِّي بعد الحليم؟!".

وذهب الطويل، وبالطبع كان رد عبد الحليم جاهزًا، وعاد إلى أم كلثوم التي قررت أن لا تتعاون مع الأبنودي أبدًا.

الصدفة لعبت دورًا كبيرًا في الخلاف الكبير بين أم كلثوم وعبد الرحمن الأبنودي، لكن الحقيقة أن الأبنودي لم يكن من مريدي أم كلثوم، بل لم يكن من محبيها، ورغم أني لا أجد تفسيرًا واحدًا منطقيًّا لعدم حب الخال لسيدة الغناء - بلا منازع في رأيي - إلا أنه يُصرّ على ذلك ويؤكده ويقول: "أنا لست من هواة أم كلثوم، لكني من عشاق عبد الحليم، ولا أتصور أنني ممكن أضيع ساعتين عشان أسمع أغنية لها، الأفضل لي أن أقرأ كتابا لشاعر أو أديب أو عالم!!

الأبنودي قطعًا يعرف قامة وقيمة أم كلثوم حتى لو كان لا يحبها، فهي قيمة كبيرة لا يمكن تجاوزها أو التقليل منها، لكن ربما الخال الصعيدي لم يكن محبًّا لغرور كوكب الشرق وعدم الذهاب إليه والحديث معه، وأنها تريد أن تأمر فتُطاع، وهو ما رفضه الخال، حتى لو رأى البعض - وأنا منهم - أنه من حقها أن تضع نفسها في المكانة التي تراها، وأن لا تقبل المقارنة بأحد أو المنافسة مع أحد.

الأبنودي وجد نفسه مع عبد الحليم، وقبلها مع محمد رشدي، وقد التقطته أم كلثوم بذكائها وحسها الفني حين لمع معهما، ووجدت عنده ما لم تجده عند غيره؛ لذلك حاولت معه مرة واثنتين وثلاثًا، لكنها فشلت، ولم تستطع أن تجد معه أرضية مشتركة، وربما يكون قُرب الأبنودي الشديد من عبد الحليم سببا كافيا لابتعاده عن أم كلثوم، فربما كان من

الصعب أن يجتمع الاثنان في قلبه وعقله.

لكن هذه طبيعة الخال، فهو لا يحب أن يتحدث إلا مع وعن من يحبهم، ولا يهوى الحديث عمن يختلف معهم وعنهم، ويفضل دائمًا أن يظل يتحدث عن جمال عبد الناصر، وعبد الحليم حافظ، ولا يود الحديث عن أنور السادات، وأم كلثوم ويتحدث عن صلاح جاهين ولا يرغب في الحديث عن أحمد فؤاد نجم.

هذه قناعاته التي لا يغيِّرها، لأنه لا يريد أن يَجرح أحدًا أو يُجرِّح في أحد حتى لو كانت حكاياته مع مَن لا يهواهم أمتع ممن يهواهم!

مش كل الرهان حرام!

كان رهانًا، ولكن ليس كل الرهان حرامًا!

كان الجالسون: الموجي وبليغ وكمال الطويل ومرسي جميل عزيز ونبيل عصمت وجلال معوض ومجدي العمروسي ووجدي الحكيم.

وراح الأبنودي بلسانه السليط ينال من أغنيات آخر أفلام العندليب، وفجأة قال عبد الحليم: يا أستاذ أبنودي رحم الله امرأً عرف قدر نفسه.. أنت راجل جميل في الأغاني الشعبية، والأغاني العاطفية الخفيفة، والوطنية، ومالكش دعوة بالأغاني الكلاسيكية.

الأبنودي: هذه ليست أغاني كلاسيكية.. دى كيمياء.. تضع مادة على مادة تعطيني مادة.. بمعنى أن الذين يكتبون هذه الأغاني لا يحسّونها.

عبد الحليم: يا أستاذ دول أساتذة كبار وأنت ماتعرفش تكتب زيّهم!

الأبنودي: أنا ما ارضاش.. مش ما اعرفش.. ولو كنت مثلهم لاشتريت الشارع اللي أنا ساكن فيه.

عبد الحليم: لأ.. أنت ماتعرفش.. ولو كتبت زى أغنية "جبار" ـ وكان أيامها يُجري بروفات أغنية "جبار"، ورأيه أنها من الأغاني التي يصعب تكرارها ـ فلن أناقشك في أجرها!

فكتب الأبنودي رائعته "مشيت على الأشواك":

مشيت على الأشواك وجيت لأحبابك

لا عِرفوا إيه ودَّاك

ولا عِرفوا إيه جابك

رميت نفسك في حضن

سقاك الحضن حزن

حتي في أحضان الحبايب

شوك شوك يا قلبي

وكسب الاثنان الرهان!

نعم، الأبنودي كسب التحدي وحصل على أعلى أجر في أغنية، وعبد الحليم كسب أغنية صارت واحدة من أبدع الكلاسيكيات.

لكن الغريب أن الخال لا يعرف عدد الأغاني التي كتبها، ولم يفكر يومًا في جمعها في كتاب، والأغرب من ذلك أنه لم يكن يحصل على مليم

واحد من الأغاني الوطنية التي كتب كلماتها، وتغنَّى بها عبد الحليم، وما زالت كل القنوات الفضائية تذيعها!

ولعل الأبنودي الشاعر الوحيد الذي لم تتضمن دواوينه ـ على كثرتها ـ نصًّا واحدًا من أغنياته، فهو يرى أن القصيدة ملكه وحده لا شريك له فيها، أما الأغنية فيشاركه فيها المطرب والملحن والموزع، وكم من كلمات تغيرت استجابة لدواعي اللحن والصوت.

لكن رغم ذلك يظل عبد الرحمن الأبنودي واحدًا من الذين غيَّروا شكل الأغنية، فقد أضاف إليها لغته، ومفرداته، وطريقته، وأفكاره، حتى صار البعض يقول إن الأغنية قبل الأبنودي شيء وبعده شيء آخر.

الأبنودي وضع قواعد جديدة لكلمات الأغاني حين كتب لمحمد رشدي أغنيتين حوَّلته من رجل مريض لا يترك بيته إلى مطرب لا يغادر الاستوديو، وصار هذا الشكل قانونًا حين عمل مع عبد الحليم حافظ في أغنية "أنا كل ما أقول التوبة".

واستمر الخال في رحلته، وظل يراهن على نفسه، وعلى قدراته الاستثنائية، وعلى مخزونه الإبداعي، وظل في فترة يفاجئ مريديه، فعندما تذهب إليه الفنانة نجاة وتطلب منه كتابة أغنية لها فيهديها:

عيون القلب.. سهرانة.. مابتنامشى

لا أنا صاحية.. ولا نايمة.. مابقدرشى

يبات الليل.. يبات سهران.. على رمشي

وانا رمشي ما داق النوم

وهو عيونه تشبع نوم

رُوح يا نوم من عين حبيبي

رُوح يا نوم

الأبنودي يبحث دائمًا عما يُدهش الناس، فهو يرى نفسه بمرآة البسطاء، ولا يشغل نفسه بمنافسة أحد، فهو ينافس نفسه فقط.

فمثلما كتب الخال لنجاة واحدة من أجمل أغانيها، كتب أيضًا للفنانة الكبيرة شادية واحدة من أجمل أغانيها وهي "آه يا أسمراني اللون.. حبيبي يا أسمراني"، وكذلك كتب للمبدعة فايزة أحمد أغنية "مال عليًا مال".

وحين ذهبت إليه الفنانة صباح كتب لها أغنية لم تعد تذكر أو تغنِّي سواها، بل تؤكد دائمًا أن هذه الأغنية هي تعبير دقيق يجسد تاريخ حياتها الفنية، وهي أغنية:

ساعات ساعات ساعات ساعات

أحب عمري وأعشق الحاجات

الخال ظل نابضًا بشِعره، وبكلمات أغانيه التي أثبتت أنها قادرة على الصمود، ومواجهة الزمن بانتصاراته وانكساراته، وبنجومه الجدد أيضًا، فقد عمل الأبنودي مع عدد كبير من نجوم الغناء منذ أن جاء إلى القاهرة في الستينيات حتى الآن، ولعل أكثر فنان غنَّى من كلمات الخال هو علي الحجار، فقد تعاونا في أغانٍ كثيرة، منها أغاني تترات المسلسلات الأجمل في تاريخ الدراما العربية.

وقد حرص الحجار على تحويل عدد كبير من قصائد الأبنودي إلى أغانٍ مهمة، ومؤثرة، ومنها قصيدة "ضحكة المساجين" التي خرجت في توقيت حرج لمواجهة سلطة المجلس العسكري الذي كان يحكم مصر بعد ثورة ٢٥ يناير، فتم منع إذاعتها في العديد من القنوات!

وهذه ميزة الحجار فهو حالة مختلفة وصادقة وجادة وجريئة ولا تسعى لمجد، وإنما تسعى لفن؛ لذلك من أكثر الأغاني التي لمست قلوب الناس حين غناها علي الحجار هي:

ماتمنعوش الصادقين عن صدقهم

ولا تحرموش العاشقين من عشقهم

كل اللي عايشين للبشر

من حقهم

يقفوا ويكمِّلوا

يمشوا ويتكعبلوا

ويتوهوا أو يوصلوا

وإذا كنا مش قادرين نكون زيهم

نتأمل الأحوال، ونوزن الأفعال

يمكن إذا صدقنا نمشي في صفهم

وكما لا يمكن حصر عدد الأغاني التي كتبها عبد الرحمن الأبنودي،

لا يمكن أيضًا حصر عدد المطربين الذين تعاونوا معه، لكن هناك مطربا يشعر البعض أنه الأقرب إلى لون الأبنودي الشعري هو محمد منير الذي يعرف ويدرك قيمة أن يغني من كلمات الأبنودي، ففي كل عمل جديد له يسعى إلى الخال ليضع بصمته على ألبومه الغنائي.

محمد منير نجم له بريق خاص، ولون مختلف، لا ينافس أحدا، ولا أحد ينافسه تمامًا مثل الخال؛ لذلك ارتبطت صورة محمد منير الغنائية بصورة الأبنودي الشعرية، فكلاهما جاء من الجنوب مُحملا بمخزون ثقافي ثري ومختلف، لكن بقي تعاون واحد بين الاثنين قريب إلى قلبيهما.

ولكن له قصة.

ففي أحد الأيام ذهب منير إلى الملحن محمد رحيم، وقال له: "سمعَّني عندك إيه؟"، فردّ عليه رحيم: عندى حاجة بتقول "يا بنات الهلالية.. يا بنات الهلالية".

فقاطعه منير قائلًا: "لو عايز تتكلم عن الهلالية يبقى لازم نروح لدكتور الهلالية الرجل اللي لفّ ٣٠ سنة يجمع السيرة الهلالية".

وذهب منير بصحبة رحيم إلى الخال ليطلبا منه أن يكتب أغنية تحمل بين ثناياها السيرة الهلالية، فكتب الخال يقول:

جاي من بلادي البعيدة

لا زاد ولا مَيَّه

وغُرْبتي صاحْبتي بِتْحُوم حواليّا

وانتي تقوليلي بحبَّك

تحبِّي إيه فيَّا

وده حب إيه ده

اللى من غير أي حرية

الفصل السادس

الدايرة المقطوعة

الله يخرب بيت الفكر

وبيت اليوم

اللى وَرَّانا الفكر

لأن الفكر كتاب

و(عويضة)

حياته هباب وتراب

عايش زمنه الكداب

زى العادة ـ مرتاب!!

أرجو أن نكون أصدقاء!

"انت هتبقى أشهر وأغنى مني، بس أرجو لما ييجي اليوم ده نكون أصدقاء"!

هكذا قال أمل دنقل لعبد الرحمن، عندما كانا تلميذين في مدرسة قنا الثانوية، يومها ضحك الخال، واعتبرها نكتة، لكنه بكى حين تذكرها في أثناء زيارته الأخيرة لأمل في الغرفة رقم ٨ بمعهد الأورام، حينها قال له الخال: "أمل.. أنت قولت لي جملة زمان"، فقاطعه أمل دنقل قائلًا: "فاكرها"!، فعلق الأبنودي: "أدينا لسه أصدقاء".

رأى عبد الرحمن، أمل لأول مرة في خناقة!

وتدخل عبد الرحمن لإنقاذ زميله في المدرسة، ومرت الواقعة على خير، وتعرَّف عبد الرحمن علَى أمل وصارا صديقين لا يفترقان، بل صارا أشهر صديقين في المدرسة الثانوية، واشتركا معًا في فريق التمثيل.

ويضحك الأبنودي حين يتذكر صديقه أمل وهو يؤدي دورًا في إحدى المسرحيات ويقول: "كان يؤدي دوره بحماس شديد، ويندمج وينفعل بشدة لدرجة كانت تجعلنا نموت من الضحك"!

وفي عام ١٩٥٦ تدرب أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي على حمل السلاح!

وقتها أعلنت المدرسة أنها ستقوم بالتعاون مع الجيش بتدريب الطلاب على السلاح حتى يستطيعوا الاشتراك في المعركة ضد العدوان الثلاثي على بورسعيد الباسلة.

فسارع عبد الرحمن ومعه أمل دنقل بالاشتراك في التدريب في "حوش المدرسة"، وبالفعل ظل التدريب قائما عدة أيام حتى أجاد الاثنان التعامل مع السلاح لكن بعد انتهاء فترة التدريب تم إبلاغهما بأنهما سيعملان في الدفاع المدني!

فطغى الحزن على أمل وعبد الرحمن، وشعر كلاهما بأنه يريد أن يعبِّر عن انفعالاته، وأن لديه ما يقوله، فوجد كل واحد منهما نفسه يكتب قصيدة، وكانت أول مرة يكتشف فيها كلاهما أنه يمكن أن يكون شاعرًا، وقرأ كل واحد منهما قصيدته للآخر، وكانت القصيدتان باللغة العربية الفصحى، وبعد أن انتهيا من القراءة قالا معًا "طالما شالوا مننا السلاح يبقى هنحارب بالقصيدة".

وفي هذه الأثناء نظمت مدرسة قنا الثانوية حفلا لعيد الأم لأول مرة، فقرر أمل وعبد الرحمن الاشتراك في الحفلة بقصائد شعر من تأليفهما، وألقى دنقل قصيدته بالفصحى، بينما ألقى الأبنودي شعرا حلمنتيشيًّا فقال مازحًا:

أهدي إليك تحية بنشاطا

يا من بها فرح الفؤاد وظاطا

أعلنتِ حربكِ على الطبيخ هَزَمْتِه

وغدا الحديد بساحتيك بطاطا

نسخت ثوب الخبز حتى

لم يعد يقوى على إصلاحه خياطا!!

فضجَّت المدرسة كلها بالضحك، لكن بعدها قرر الأبنودي أن لا يكتب إلا بالفصحى، ولكن حين ذهب عبد الرحمن إلى قريته أبنود وقرأ شِعره على رفاق المرعى، شعر أنه غريب بينهم، وهم شعروا أنه قد تغيَّر، فكأن جدارا قد أُقيم بينهما.

في هذه الأثناء التي كان فيها عبد الرحمن ما زال طالبًا في المدرسة الثانوية دخل إلى فصله مدرس قادم من القاهرة، وقال: "أنا اسمي توفيق حنا، وهادرِّس لكم فرنساوي".

كان توفيق حنا بمثابة نقطة التحول الأهم في حياة دنقل والأبنودي، فقد كان يحكي لهما دائمًا عن القاهرة، وعن كبار الأدباء والمثقفين، وكان ذلك عالمًا مجهولا للتلميذين أمل وعبد الرحمن في هذه التوقيت.

يقول الخال: وفي إحدى المرات كان الأستاذ توفيق عند جامع سيدي عبد الرحيم، ووجد العمال يعملون في الترعة فقال لي "يعني أنت لما تهرج وأنت راجل موهوب وتترك دول ماتعبرش عنهم مش دي تبقي جريمة!" قلت له "دول ولاد عمي" وكان من بينهم "أحمد سماعين"، فقال لي: "يعني أنت من الناس دي وسايبهم، أمال مين اللي هيتكلم عنهم".

لحظتها قرر الأبنودي أن لا يكتب إلا باللهجة التي يفهمها أبناء قريته، وكانت أول قصيدة كتبها بالعامية من أجلهم هي "النَّعش طار".

وترك الأبنودي ودنقل المدرسة، وذهبا إلى جامعة القاهرة، وكان ذلك في مطلع الستينيات، وحينذاك كانت القاهرة حافلة بكل الأنشطة السياسية والثقافية، وكان الاثنان يذهبان إلى نادي القصة، ورابطة الأدب الحديث، وجمعية الأدباء، ونسيا في صخب القاهرة أنهما طالبَين في الجامعة، فقد شغلتهما الثقافة عن الدراسة، لدرجة أن الأبنودي حين أرسل إليه والده أربعين جنيهًا قيمة مصاريف الجامعة، قرر أن لا يدفع المصاريف، واشترى بهذه الأموال صندوقا خشبيًّا ضخما، وكُتبًا من "سور الأزبكية"، وكان ثمن الكتاب قرش أو قرشين، وأغلى كتاب كان ثمنه خمسة قروش، وحمل الكُتب في الصندوق ووضعها على عربة "كارو"، وأرسلها إلى قطار البضائع، وعاد إلى الصعيد!

وعندما رآه والده الشيخ الأبنودي لم يسأله عن شيء، لكن والدته هي التي تدخلت وقالت لوالده: "عبد الرحمن رجع مش هتشوف له شغل؟" فرد عليها باقتضاب وحسم: "بكرة يغور يروح المحكمة يقابل الأستاذ أحمد مساعد وهو هيشغّله".

وذهب الخال إلى الأستاذ أحمد، الذي عيَّنه "كاتب جلسة" في المحكمة الجزئية في قنا وعمل بدائرة تختص بنظر دعاوى غير المسلمين، ثم انتقل بعدها إلى دائرة الأحوال الشخصية للمسلمين، ومعظم القضايا كانت لنساء تركهن أزواجهن ـ على حد تعبير الخال ـ وكانت النساء يتجمعن أمام مكتب الخال في المحكمة، وصارت له شعبية كبيرة بين النساء اللاتي يحملن المشكلات، وكان يكتب الشعر على ورق القضايا!

وفي بداية تعيينه ظل لفترة يتنقل بين المحاكم في الأقصر، ونجع حمادي، وقوص، وكان رؤساؤه يتعنتون معه؛ لأنه "مش موظف كويس"، لذلك عانى كثيرا من الترحال بين مراكز محافظات قنا، وتألم كثيرا مما يحدث له ومعه، خصوصًا أنه كان يهرب من المفتشين في القطارات، ويجلس فوق سطح القطار ذهابًا وإيابًا.

حتى نصحه أحد الركاب الهاربين مثله أن يصطحب معه جلبابًا عند الصعود لسطح القطار، ولكنه لم يسمع النصيحة التي أدرك قيمتها حين اعتلى سطح القطار للمرة الأولى.

فقد وجد أكوامًا من الأتربة غطت قميصه، وبنطلونه حتى إنه وصل إلى المحكمة وملابسه البيضاء صارت سوداء تماما، لكن بمجرد دخوله قاعة المحكمة التقطه رجل يعرف والده، فاصطحبه إلى بيته، ومنحه ملابسه ليرتديها حتى لا يتعرض للوم أو سخرية من القاضي.

كل هذا لم يؤثر على الخال ويجعله يقرر عدم الذهاب إلى المحكمة، لكن حدث ما جعله يستقيل من وظيفته!

ففي إحدى المرات جاءت امرأة تشكو زوجها، وقالت للقاضي: "جوزي بيشتغل في البحر الأحمر في البترول وتركني أنا وولدي" فحكم لها القاضي بـ١٨٠ قرشًا، فهمس الأبنودي في أُذن القاضي، وقال له: "أعرف واحد بيشتغل هناك وبياخد أربعين جنيه في الشهر".

فتعجب القاضي وكان ودودًا ـ على حد وصف الخال ـ لكنه صاح فجأة، وقال: "أنت بتقول إيه يا موظف.. أنت هنا قلم"، فرد عليه الخال محتدًّا: "طيب ودين أبويا ما أنا كاتب وراك كلمة.. دي ست غلبانة

وصغيرة عايز تدّيلها ١٨٠ قرش وجوزها بياخد أربعين جنيه.. تروح فين وتعمل إيه؟"!

فصفّق الحاضرون للخال إعجابا وتقديرا لشهامته وجرأته في مواجهة القاضي الذي هدده بالحبس إذا أصر على الحديث دون إذن، هنا قرر الأبنودي أن يستقيل من فوق منصة القضاء ـ رغم أنه كان مجرد كاتب جلسة ـ احتجاجًا على عدم إنصاف القاضي للمظلومين!

وفي النهاية قدَّم عبد الرحمن الأبنودي استقالته من وظيفة كاتب الجلسة في الأول من مارس عام ١٩٦٢، وكانت الاستقالة مكونة من ١٦ ورقة، كشف فيها فساد النظام الإداري داخل المحكمة، ورغم ذلك توسط كثيرون لدى القاضي ليعود الأبنودي إلى عمله، لكن المفاجأة أن الخال هو الذي رفض العودة نهائيًّا.

وفي نفس التوقيت اتخذ أمل دنقل قراره بالاستقالة من عمله كمُحضر لدى المحكمة، وكان من مهام وظيفته أن يقوم بتنفيذ أمر المحكمة بالحجز على ممتلكات الناس، وقد تحمل كمًّا هائلا من السخافات طوال فترة عمله في هذه الوظيفة ثقيلة الظل.

وعاد الاثنان إلى رشدهما وعادا إلى القاهرة، وظل يناضلان فيها حتى صار كلاهما بمثابة معجزة شعرية كبرى، وصار لهما مدرسة ولها مريدون من المحيط إلى الخليج، أحدهما صار من علامات الشعر العامِّي، والآخر صار يُدرَّس شعره في أقسام اللغة العربية لطلاب الجامعات.

لكن الأهم أنهما ظلا صديقين حتى الأنفاس الأخيرة في حياة أمل دنقل، ففي آخر لقاء جمع بينهما في المستشفى أوصى أمل أخاه عبد الرحمن بأن يدفنه بجوار أبيه، وأن لا يرضح لضغوط أحد.

لكن المدهش أن أمل دنقل في هذا اللقاء قبل الأخير، قال للخال: "أنا سمعت لك غنوة كنت عاملها لمحمد قنديل في عيد الربيع وماسمعتهاش تاني، أنا عايز الغنوة دي دلوقتي".

فتعجب الخال وسأله: "اسمها إيه؟"، فقال: "ناعسة".

الغريب أن الأبنودي لم يتذكر الأغنية مطلقًا، وسأل عنها كل الملحنين الذين تعاون معهم، حتى وجدها لدى حلمي أمين الموجي، وكانت تائهة وسط الشرائط، وظل يبحث عنها حتى وجدها.

وذهب الأبنودي لأمل، ليسمع الأغنية التي طلبها، وكانت تقول:

ويا ناعسة لا لا.. لا لا

خِلْصِت معايا القِوَالة

والسهم اللي رماني

قاتلني لا محالة!!

وكأن أمل كان يقرأ نفسه في هذه الغنوة، فالسهم قد أصابه، ولا محالة.

ورحل أمل دنقل في اليوم التالي، وحمله الأبنودي على كتفه إلى قبره، ودُفن كما أوصاه، دون أن يلتفت إلى أحد، وظل الخال كلما ذهب إلى أبنود مرّ على قبر أمل ليقرأ له الفاتحة.



.. وجاء يحيي الطاهر

فجأة نزل إلى قنا شاب في رُفع بوصة الذُّرَة، كأنه خيط حادّ شُدّ بالشمع ليستعصي على القطع.

لا يغيِّر لغته حسب نوعية الناس، وإنما يظلون ينظرون إليه في دهشة كأنه كائن فضائي غريب حطَّ بينهم فجأة بلغة فضائية لا يفهمونها ويتحدث عن مخلوقات أخرى مشابهة له، بينما أهالينا البسطاء يظلون أمامه فاغري الأفواه يتعجبون من معجزات الله التي أودعها خلقه.

إنسان رقيق مهذب، كأنه منسوج من حرير، وفي نفس الوقت بركان ثائر يقذف بالحمم دون توقُّف، فهو طفوليّ لكن تمتزج عبقريته بحب شديد للملاعبات والمداعبات.

عيناه حمراوان كأنه شرب لتوِّه برميل روم، سبابة يمناه طويلة،

ومستعدة لتنغرس في عين كل من يقول كلمة ضد الأستاذ عباس محمود العقاد.

إنه يحيى الطاهر عبد الله كما يراه ويصفه ويتحدث عنه الخال عبد الرحمن الأبنودي. وللعقاد قصة مع يحيى الطاهر.

فقد كان ليحيى خال شاعر وأديب وأحد حراس ثروة العقاد اسمه الحساني حسن عبد الله، من هؤلاء الذين إذا انتقدتَ أو ناقشتَ فكرة ما للأستاذ العقاد تجدْه انتفض وتبدلت ملامحه في الحال ليصير الوجه عصابيًّا يختلف تمامًا عن وجه صاحبه.

نقل الحساني عدوى التحزُّب العقَّادي في تلك البيئة الضيقة بقرية الكرنك إلى يحيى الطاهر الذي جاء محصَّنًا بدرعه ممتشقًا سيف "الحزب العقَّادي" وحين بلغنا وأقام معنا وتناقشنا، اتهمناه بالانغلاق وأنه يحفظ "صما" ما لقَّنه إياه العقَّاديون، وأن الواجب أن يقرأ الحكيم ومحفوظ وطه حسين كما يقرأ العقاد.

أما أمل دنقل فقد انطلق في وجه يحيى الطاهر قائلًا: "إذن.. ما دمت تعرف كل شيء، وما دام العقاد حشا فمك بكل ذلك الكلام الجاهز فلا أمل فيك، وعليك أن تعود الآن إلى الكرنك لتجد شابًّا صغيرًا نقيًّا تلقِّنه ما لقنك إياه خالك الحساني، لا تضيف إليه ولا تُنقِص، لتخرج إلى الحياة مثل والدك ووالدي ووالد عبد الرحمن مستريحا تماما إلى ما أجهد الآخرون أنفسهم في تحصيله لتتلقفه أنت بعقل جامد وتسلمه إلى غيرك بنفس الجمود والبرود".

بينما قال له الأبنودي: "لقد قرأنا العقاد يا أخي قراءة جماعية واستفدنا من وعيه بالعلم والفلسفة وعلم النفس وحتى بالاقتصاد ناهيك

بالتاريخ، لكننا في الوقت نفسه قرأنا من طه حسين إلى أنيس منصور".

واحتار يحيى الطاهر حيرة شديدة بين ما سمعه من أمل وعبد الرحمن، وبين ما حفظه وشبَّ عليه طوال حياته، لكنه حسم أمره، وهضم كل رأي، فصارت له ذائقة نادرة يرى مواضع الجمال الخفية ويكتشف مَواطن الضعف.

هكذا ظل يحيى الطاهر مذ أول مرة رآه فيها الخال عبد الرحمن الأبنودي.

حينذاك دَقَّ الباب.

قالت فاطمة قنديل: "عاوز إيه؟" قال: "عاوز عبد الرحمن"، سألته: "أنت مين؟" قال: "جوليله يحيى الطاهر عبد الله"، فشدَّت فاطمة قنديل "السُّقاطة" ليدخل!!

ومر يحيى الطاهر من الباب، واستقرّ في إحدى الغرف، فدخل وقعد وولع سيجارة، وقرر أن لا يغادر هذا البيت أبدًا، دون أن يدعوه أحد أو يستأذن من أحد.

وجلس يحيى الطاهر، وحصل على حقوق لم يحصل عليها عبد الرحمن ذاته، لدرجة أنه كان يدخل في نقاشات عنيفة مع أبناء الشيخ الأبنودي الكبار، وينتقدهم علنًا حتى ضاقوا به، لكنه لم يكن يحسّ ذلك، فقد كان يعتقد أنه يرى الحقيقة، وعلى الجميع أن يروا ما يراه وإلا كانوا متخاذلين لا يبغون تطوير أنفسهم، وذهبت محاولات الخال لإسكاته سُدًى، بل إنه كان يتعجب حين يقول له الخال إنه يجب أن يتصرف باعتباره ضيفًا سوف يرحل آجلًا أم عاجلًا.

وكان يردّ على الأبنودي بهدوء شديد قائلًا: "مَن قال إنني سوف أرحل؟ ثم إن إخوتك لا يملكون الحق في الضيق بي لأنني في هذا البيت أسلك في إطار حقوقك أنت، إذ إنني أنت، وإذا لم يكن يعجب أبناء الشيخ وجودي بينهم فليرحلوا"!

راقبه أبناء الشيخ الأبنودي أيامًا ثم قرروا أنه مجنون، وأنه ليس من الطبيعي لرجل لا يعرفون عنه شيئا أن يصبح عضوا دائمًا في البيت يعرف أسراره، ويحضر الشجارات ويتدخل فيها وينحاز إلى جانب ضد جانب، ويفعل ما يشاء وقتما يشاء.

هكذا أقام يحيى الطاهر في بيت الشيخ، كأنه نزل إليهم بالبراشوت لينزرع في قلب أمل وعبد الرحمن دون سابق معرفة أو إنذار، كأنه يحيا بينهم منذ ولادتهم.

يحيى الطاهر شخصية بديعة ومبدعة لكنه أيضًا ـ مثل أفذاذ كثيرين ـ به مَسّ من جنون، فذات يوم قرر أن يترك عمله، ويتفرغ للقراءة!

وذهب إلى أمل دنقل وعبد الرحمن الأبنودي ليبلغهما القرار، حينها ثار أمل في وجهه ثورة عنيفة.

وإذا بيحيى يقول: "طب وفيها إيه يا أمل؟ فيها إيه يا خيّي؟ أنا جيت من الكرنك علشان أشوفكم انتو ولّا عشان الوظيفة؟ يجطع الوظيفة واللى يعوز الوظيفة".

قال أمل: "وكيف تأكل وتشرب وتدخن هذا الكم من السجائر التي لا ندخنها مجتمعين؟".

ويرد يحيى: "إهدا بس يا خيّي. الأكل والشرب عند الحاجّة أم عبد

الرحمن، الأكل في بيت الشيخ الأبنودي يكفي جَبيلة، أما عن الدخان فمتآخذنيش ده انت أبو الكرم، مثلا علبة السجاير دى جابها لي مصطفى الشريف".

ويصرخ أمل قائلًا: "وكمان عرفت مصطفى الشريف؟ إمتى وفين؟".

يقول يحيى الطاهر: "لقيته في الندوة واتكلمت معاه، وكلمة من هنا وكلمة من هناك لقيت الراجل حبّني وراح اشترالي علبتين سجاير".

المدهش أن يحيى الطاهر كان قد ترك عمله قبل أن يحزم حقائبه ويحملها إلى قنا، لكن كان يدرك أن هذا القرار سيتسبب في ثورة ضده لذلك كتمه في قلبه، ولم يبلغ به أحدًا، بل ادَّعى أنه انتقل للعمل من وزارة الزراعة في الأقصر إلى قنا حتى يقتنع الجميع بما فعله.

مذ ذلك الوقت صار عبد الرحمن وأمل وثالثهم يحيى الطاهر لا يفترقون أبدًا يأكلون ويشربون ويسهرون معًا إلى أن رحل يحيى فرثاه الاثنان.

قال عنه أمل:

ليت أسماء تعرف أن أباها صعد

لم يَمُتْ

هل يموت الذي كان يحيا

كأن الحياة أَبَدْ

وكأن الشراب نَفَدْ

وكأن البنات الجميلات يمشين فوق الزبد!!

بينما رثاه الأبنودي في "عدُّودة تحت نعش يحيى الطاهر عبد الله" قال فيها:

يا يحيى يا عجبان يا مليح

يا رقصة يا زغروته

إتمكن الموت من الريح

وفِرْغِت الحدوتة

آخر حروف لابجديَّة

أول حروف اسم يحيى

للموت كمان عبقرية

تموت لو الاسم يحيى

المدهش أن عبد الرحمن الأبنودي ويحيى الطاهر وُلِدا معًا في شهر أبريل من عام ١٩٣٨ ولكن الأبنودي أتى إلى الدنيا قبل يحيى الطاهر بتسعة عشر يومًا فقط، أما أمل دنقل فقد جاء إلى الدنيا بعدهما بعامين، ولكن الثلاثة صاروا أعلامًا شامخة وعلامات بارزة في تاريخ الشعر والأدب.

لكنها صدفة عجيبة ومذهلة أيضًا أن يُمنح الجنوب ثلاثة على هذا القدر من العبقرية والتفرد في زمن واحد، شاعران فذَّان، وأديب متفرد، إلا أنهم من كثرة "العِشرة" و"العيش والملح" صاروا ثلاثة شعراء حين لُقب يحيى الطاهر بشاعر القصة القصيرة، ورثاه يوسف إدريس قائلًا عنه: "النجم الذي هوى".

وتعالى شوف يا صلاح!

لولا أن هذه الواقعة رواها لي الخال بذاته، ما صدَّقتها أبدًا!

صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي ومعهم سيد حجاب برفقة سيد خميس كانوا يبحثون عن ناشر، ولا يجدون!

كان جاهين يريد طباعة "الرباعيات"، والأبنودي يريد طباعة ديوانه الأول "الأرض والعيال"، وحجاب كان قد انتهى من ديوانه "صياد وجنيّة"، ويود طباعته، لذلك قرروا عمل دار نشر كي يستطيعوا طباعة أعمالهم الشعرية، واتفقوا على تسميتها "ابن عروس" وتولَّى صديقهم سيد خميس ترتيب أمور المطبعة، والاتفاق مع أحد أصحاب المطابع، وتم بالفعل طباعة الدواوين الثلاثة.

لكن رغم أن هذه الأعمال البديعة "كسرت الدنيا" وتحديدا "رباعيات" جاهين التي ما زالت تتصدر مبيعات الكتب حتى الآن، فقد أبلغهم صاحب

المطبعة الذي تولى أمور التوزيع أن الكتب لم توزع نسخة واحدة، وبالتالي ليس لهم مليم واحد لديه!

فقرر الثلاثة إغلاق دار نشر "ابن عروس"، بعد أن تعرضوا للنصب، وضاعت فلوسهم على هذا المشروع، ولم يحصلوا على نسخ مطبوعة من أعمالهم، وبعدها قرر كل منهم طباعة عمله على حسابه.

لكن علاقة الخال الأبنودي بعمنا صلاح جاهين، لم تكن على وتيرة واحدة، بل مرت بمراحل صعود، وهبوط، وفرح، وغضب!

فقد بدأت العلاقة عبر موجات الإذاعة، فقد سمع الخال اسم صلاح جاهين لأول مرة في الراديو.

حينذاك كان الراديو يذيع أغنية اسمها "حلاوة زمان عروسة حصان" ولمست الأغنية رغم بساطتها قلب الخال، وتعلق بكاتبها، الذي اعتبره اكتشافا عظيما، لكنه علم أنه واحد من أكثر الشعراء شهرة رغم صغر سنه، وأن له دواوين كثيرة منها ديوان "موال عشان القنال"، و"عن القمر والطين" ومنذ ذلك اليوم ارتبط الأبنودي بجاهين، وصار يدَّخر من مصروفه من أجل شراء مجلة "صباح الخير" حتى يقرأ رباعيات جاهين التي كان ينشرها في ذلك الوقت.

بعدها دشن صلاح جاهين بابًا جديدًا في المجلة بعنوان "شاعر جديد يعجبني" نشر فيه لعدد كبير من الشعراء ـ صاروا علامات بارزة في تاريخ الشعر ـ فأرسل إليه عبد الرحمن الأبنودي قصيدة بعنوان "الطريق والأصحاب" على ثلاث صفحات مكتوبة على ورق المحكمة ـ التي كان يعمل بها الخال ـ وعندما نُشرت القصيدة أحدثت صدًى كبيرا، وقبلها كان قد نُشرت له قصيدتا "النعش طار" و"لقمتين سيجارة بيلمونت".

وحين حضر الأبنودي إلى القاهرة كان من أول الأبواب التي طرقها باب صلاح جاهين الذي كان في انتظاره؛ واحتفى به بمجرد مجيئه إليه، وصارا صديقين، وحين انتقل جاهين من مجلة "صباح الخير" إلى جريدة "الأهرام"، ظل حريصًا على أن ينشر قصائد الخال الجديدة في مربعه اليومي المخصص للكاريكاتير، وكذلك قصائد سيد حجاب.

واستمرت علاقة الوُدّ بينهما وتعمقت وتأصلت، وصارت بينهما لقاءات دائمة وشبه يومية، يتحدثان في الفن والشعر والأدب والحياة الشخصية ويروي كلاهما للآخر أدق تفاصيل حياته ومعاناته، لكن فجأة حدث ما عكَّر صفو هذه العلاقة بين القطبين الكبيرين، حتى إن البعض أكد أنه كان مفترق الطرق!

لذلك كان لا بد أن أعرف من الأبنودي سر خلافه مع جاهين، بل كان أول سؤال يشغل بالي حين ذهبتُ إلى الخال هو: لماذا حدث خلاف كبير بينه وبين عمنا صلاح جاهين؟ وهل كتابة قصيدة رثاء لجاهين كانت بمثابة اعتذار عما حدث؟!

فأجاب الخال قائلًا: صلاح قال في أغنية المسؤولية "تماثيل رخام عَ الترعة وأوبرا في كل قرية مصرية"، فتذكرت أبنود، وتذكرت أن الوحدة المجمعة أيام عبد الناصر اتعملت بالعافية، وأن الناس بسيطة وأحلامها بسيطة، فشعرت من كلام جاهين أننا نستقلّ بأحلامنا عن الناس، وكتبت في "روز اليوسف" وقتها أن صلاح جاهين تطرف بأحلامه لدرجة أنها أصبحت مستحيلة، وكانت علاقتي بصلاح جاهين "جَدّ" على عكس علاقته بشعراء آخرين حيث كانت "عاطفية" أكثر.

ويتذكر الخال الأبنودي، العم جاهين ويقول: صلاح كان نقيًا جدًا،

مابيعرفش يشيل من حد، في يوم كان عازمني في جريدة الأهرام، قال لي "على فكرة أنا مش هابطَّل أحلم" فردّيت عليه بجملتي الشهيرة "لو بطلنا نحلم نموت يا صلاح، الشعر أصلا أساسه الحلم، لكن أنا باتكلم عن التطرف في الحلم الذي يبعدنا عن الناس"، فقال لي "عندك حق بس مش هابطَّل أحلم على كيفي".

ويكمل الخال: قصيدة جاهين كانت نوعا من الوفاء لإنسان ساعدني في يوم من الأيام، وفي الوقت نفسه كان الهدف منها تكريمه، والاحتفاء برمز كبير يجب أن تعرف كل الأجيال قدره، ومكانه ومكانته، فهو قامة شعرية قد لا تتكرر بعد أجيال وأجيال.

انتهت إجابة الخال، وانتهى الخلاف، وبقيت القصيدة التي كتبها الخال الأبنودي عن العم جاهين:

الاسم زى الجواهر في الضلام يلمع..

تسمع كلامُه ساعات تضحك ساعات تدمع

شاعر عظيم الهِبات.. معنى ومبنى يا خال

يشوف إذا عَتِّمِت واتشبَّرت لاحْوال

كإنه شاعر ربابة.. ساكن الموّال

يقول.. وحتى إن ماقالش تحسّ إنه قال

ولا يقول مِ الكلام إلا اللي راح ينفع!!

***

وتعالى شوف يا صلاح

اللى جرى واللي كان

سرقوا لون الصباح

وبهجة المكان..

***

الظلم كِبر.. وسادِد

مصرك ماعادتش هيه

أضيق من القصايد

واوْسَع من رباعية..

***

عاش عمره يشبه نفسُه

وفى صِدقه شخص عادي

أمله رماه ليأسُه

قالّك: "بلاش السنادي"

***

وكل ما جَسَدُه غاب

الراجل الأصيل

يحضر من الغياب

حانِنْ لنهر النيل



الأبنودي والبنات ونزار!

قرر الأبنودي أن يختطف الأضواء، والفتيات من نزار قباني، وطبعًا الخال ينكر هذا تمامًا!!

كان ذلك حين التقى الاثنان في السودان، وكانت الفتيات ينتظرن نزار بلهفة وشوق وسعادة، والتففن حوله، حتى رفع الأبنودي البنطلون!

حركة سريعة، وخاطفة، وذكية فعلها الأبنودي ليسرق الأضواء من صديقه نزار فقد أمسك بذيل بنطلونه، ورفعه، وجرى نحو مجرى التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض، ونزل إلى حافة النهر، ووجد قِرشًا سودانيًّا، فأخرجه وقال: "النيل وهبني هذه النعمة، هل أعطاها لأحد منكم من قبل؟!".

فتركت الفتيات والكاميرات نزار، والتفتن إلى الخال حتى إن الصحف السودانية والتليفزيون تحدثت عن الواقعة، واعتبروها حدثًا فريدًا!

ويومها ألقى الأبنودي ملحمته الأشهر "جوابات حراجي القط"، حتى أطلق عليه الشعب السوداني لقب "حراجي القط".

مرت سنوات ثم التقى نزار والأبنودي مرة أخرى في السودان.

لكن هذه المرة التفَّ الجميع حول "حراجي القط" ـ كما يطلقون عليه ـ وحين رأى نزار ذلك المشهد قال مخاطبا الأبنودي: "أنت تجربة لن تتكرر.. أنت عملت لوحدك حاجة اسمها الشعر الأبنودي، مالوش دعوة بشعرنا، ولا بالشعر العربي، ولا بالأدب الشعبي، ولا بالأشعار العامية، أنت عملت شعر خاص، وستظل تجربة فريدة من نوعها".

لم يكتفِ نزار بما قاله للأبنودي وجهًا لوجه، لكنه قال في حوار له مع الإعلامي وجدي الحكيم حين سأله عن الشعراء الذين يُعجب بقصائدهم، فقال حاسمًا: "أنا معجب بشاعرين فقط في الأمة العربية، عبد الرحمن الأبنودي وأمل دنقل"!

أما الأبنودي فيقول: "نزار قباني حدث جلل في تاريخ الشعر العربي، وأنا أهوى قصائده السياسية، ولغته البرَّاقة التي لا يملكها أحد سواه، وعلى المستوى الإنساني كان صديقًا أَسعدُ بصحبته كلما رأيته".

لكن رغم حب الأبنودي وإعجابه الشديد بنزار فإن حبه الأكبر كان للشاعر الفلسطيني محمود درويش، فلم أرَ الخال يتحدث عن شاعر عربي بمثل هذا الحب الذي يسكن قلبه نحو درويش.

فقد كان يعتبره واحدًا من أفراد عائلته، فعندما يأتي درويش إلى مصر يقصد بيت الأبنودي أولا، ويجلس بصحبته طويلا، ويأكل ويشرب في بيته، بل إنه كان ينتظر "البط والحمام والملوخية" من يد السيدة نهال كمال.

وفي آخر مرة زار فيها الأبنودي تونس وجد أن الشعب التونسي - صديقه - يحتفي به كما لم يحتفِ به من قبل، رغم أن الخال يذهب إلى تونس منذ مطلع السبعينيات، فسأل متعجبا: "ماذا حدث؟!".

فقيل له: "إن محمود درويش كان هنا وقال لا يجوز أن يُقال عني شاعر الأمة العربية الأول، وعبد الرحمن الأبنودي على قيد الحياة، وقادر على العطاء".

فضحك الأبنودي، وقال مازحًا: "يعني أنا قاعد معاكم من سنة ١٩٧١ لحد دلوقتي وبتعملوا كده علشان اللي قاله محمود درويش"!

وذات مرة كان الخال في الأردن.

حينذاك كان الأبنودي بصحبة بعض الشخصيات المهمة، لكن فجأة علم محمود درويش بوجوده فاتصل به، وقال له لا بد أن تأتي فورًا، ودون نقاش.

الأبنودي: "أنا موجود مع ناس مهمّين، ومعزوم على الغدا".

درويش: "تعالى مافيش حد مهم هنا غيري أنا.. وأنا في انتظارك مع سميح القاسم".

الأبنودي: "طيب أقول للناس اللي أنا معاهم إيه؟".

درويش: "قل لهم إنك مُتّ".

ورضخ الخال لرغبة محمود درويش، وذهب إليه، ووجده في انتظاره في أحد المطاعم التي تستقرّ أعلى قمة إحدى تلال الأردن، وحين رآه احتضنه، وقال له: "حاول تدِّيني فرصة علشان أسدّ كل الديون الأكلية بتاعة نهال كمال".

وفجأة، حضر كل من في المطعم لتحية الخال، فاندهش درويش مما حدث، وقال: "إيه ده دول مش عارفين أنا مين؟!"، فضحك الخال، وقال جادًّا: "يا عم ماتخافش دي ماهاش دعوة بالقيمة".

وانتهى اللقاء، وودَّع الخال، صديقه محمود درويش، وترك له قصيدة "يامنة"، وقصائد أخرى، وعاد إلى مصر.

وبعد مرور يومين، اتصل محمود درويش بالأبنودي، وبمجرد أن رفع الخال سماعة الهاتف وجد درويش يقول له: "الله يخرب بيتك يا أبنودي.. خربت بيتي".

فرد الأبنودي:"ليه؟!".

درويش: أصل أنا كنت ناوي أكتب عن أمي قصيدة حقيقية، وليست مثل قصيدة "أحن إلى خبز أمي" التي كتبتها بمشاعر المراهَقَة، وأنت جيت في الوقت دا كتبت "يامنة"، ولا حد تاني يقدر يكتب في الحتة دي، "يامنة" قصيدة ستعيش لأبد الآبدين.

ويتذكر الأبنودي، درويش، ويقول ضاحكًا: أكثر القصائد التي شتمني بسببها كانت "يامنة" و"الأحزان العادية"؛ لأن لديه كتابًا بعنوان "يوميات الحزن العادي" وحَرَمْته من كتابة قصيدة عن أمه".

ويكمل الخال: "للأسف محمود درويش لم يَنَلْ حظه، فتجربته أعظم من تجربتي وتجربة نزار".

لكن السؤال الذي يُطل برأسه دائمًا هو: هل كانت مجرد صدفة أن تلتقي أم كلثوم مع العقاد، وطه حسين مع فاتن حمامة، وعبد الوهاب مع هند رستم، وعبد الحليم مع سعاد حسني، ويوسف شاهين مع شادية،

ومحمود المليجي مع نجاة، وفريد شوقي مع أسمهان؟!

كيف جمعت لحظة واحدة نجيب محفوظ مع يوسف إدريس، وأحمد رجب مع محمود السعدني، ومحمد التابعي مع مصطفى أمين، وكامل الشناوي مع مصطفى محمود؟!

ولماذا وجود بيرم التونسي مع فؤاد حداد، وصلاح جاهين مع صلاح عبد الصبور، وأمل دنقل مع عبد الرحمن الأبنودي، ونزار قباني مع محمود درويش، وأحمد فؤاد نجم مع سيد حجاب؟!

جميعهم كانت لديه أكثر من موهبة، بعضهم كان يكتب أغاني وأفلام ومسلسلات وشعرا وأدبا في ذات الوقت، هكذا كانت مصر في مطلع الستينيات تعجّ بالمبدعين في كل المجالات، في السينما، والمسرح، والغناء، والأدب، والفكر، والصحافة، والشعر أيضًا.

من المؤكد أنها كانت لحظة مختلفة وفارقة ومدهشة في آن واحد أن يجتمع كل هؤلاء وأن يبرزوا معًا، ويتألقوا ويبدعوا، ويصنعوا القوة الناعمة لمصر، كل هذا ـ كما يؤكد الخال ـ نتاج ثورة عبد الناصر وخطاه الثورية اليومية ومغامراته الوطنية التي كان لا بد لمصر أن تخوضها، فقد صنع حالة من الجسارة والإبداع.

من المؤكد أيضًا أن الدولة كانت تضع المثقف في المقام الأول سواء بالوقوف معه ودعمه أو حتى بالوقوف ضد أفكاره، لكنها لم تتجاهله مثلما حدث بعد ذلك.

لقد ثبت أنّ تجاهُل المبدع، وإقصاءه عن المشهد أسوأ كثيرا من محاربة أفكاره، أو حتى اعتقاله!

فسجن المبدع ـ رغم قسوته ـ يعني اعترافًا بتأثيره، ودوره، وقوته، وقدرته على التأثير، لكن تجاهله يجعله خارج المشهد، فلا وجود له.

لكن في الحالات الثلاث ظل الأبنودي ـ كما هو ـ علامة فارقة، ومضيئة، وشامخة، ومتفردة، ومؤثرة، وبارزة وقريبة من قلوب البسطاء.

ولهذا سبب يكشفه الأديب خيري شلبي بقوله: "كل شعراء جيله لهم آباء وذوات، ونسب عائلي ترى ملامحه في تكوين كل واحد منهم بشكل واضح، وهذا بالطبع لا يقلل من قيمتهم على الإطلاق إلا إذا كان الجائز أن يتبرأ الإنسان من أبيه وأهله وذويه، فمن اليسير أن نكتشف لأول وهلة أن صلاح جاهين هو أنجب أبناء فؤاد حداد، وأن فؤاد قاعود هو ابن لبيرم التونسي، وأحمد فؤاد نجم ابن نجيب لبديع خيري، وسيد حجاب هو ابن بارّ لصلاح جاهين، لعله أنجب وأهم أبنائه".

ويستطرد شلبي قائلًا: "أما عبد الرحمن الأبنودي فإنه ابن مصر كلها، ولا نلمس فيه أي ملمح من شاعر بعينه من الشعراء السابقين عليه، فهو لم يتعلم الشعر من أحد، ولم يدرسه علي يد أحد إنما هو مولود به، صحيح أن أباه الشيخ الأبنودي كان يقرض الشعر، وأن أمه ـ الأُمِّيَّة ـ كانت هي الأخرى مصدرا من مصادر الشعر الشعبي، ولكن الموروث الذي وُلد به أضخم من المكتسب الذي حصَّله عبر سنوات الطفولة، والصبا".

كان كل نجوم هذا الجيل الفذّ من شعراء العامية أصدقاء، إلى أن فرَّقتهم السياسة إلى أحزاب، وطوائف، وجماعات، فكلهم يؤمن بموهبة الآخر حتى لو أخفى إعجابه وتقديره، لكن الرؤى السياسية وحدها جعلت بعضهم يصل عند مفترق الطرق.

لكن الأبنودي له رأي آخر فعندما سألتُه عن سر العداء بينه وبين بعض

الشعراء، فأجاب: "أنا دائمًا أعدائي شعراء محبَطين، أي حاجة تطلع عليا دوَّر وراها هتلاقي شاعر محبَط، ودائما يقولون دا سادد علينا الطريق ولا يحب إلا نفسه، كذلك ربنا يكفيك شر الشعراء المفلسين، مايعرفوش إلا الكراهية، ودائما ينتظرون أن يكونوا معي في جملة مشتركة، وأنا أتحاشى ذلك تمامًا".



هذا عمك نجيب!

حين حضر عبد الرحمن الأبنودي في الستينيات إلى القاهرة كان نجيب محفوظ يعقد جلسته صباح الجمعة في كازينو "بديعة" أمام الأوبرا القديمة.

وكان يحرص الأبنودي على حضور هذه الجلسات بصحبة صديقه سيد خميس، لكنه كان يظل طوال الجلسة صامتًا، لا يتدخل في مناقشة، ولا يُعلِّق برأي، لذلك لم يكن يتصور أن نجيب محفوظ يعرفه أو يتذكره، لكن اكتشف ذلك عندما انتقلت الجلسة إلى قهوة "ريش"، حينها سأل عليه نجيب محفوظ، وقال: "كان فيه راجل صعيدي مهذب جدًّا ونحيف وكان دائمًا يحضر لي ولا يتكلم وأنا عمري ما وجهت له كلام"، فقالوا له: ده عبد الرحمن الأبنودي.

وبعدها جاء إلى الأبنودي صديق اسمه عماد العبودي، وقال له: "عايز

أوديك عند عمك نجيب تسلم عليه"، وبالفعل ذهبا معًا، وحين وصلا إلى مجلس نجيب محفوظ، وجدا أحمد مظهر، وتوفيق صالح، وآخرين من بقايا "الحرافيش".

واستقبل محفوظ، الأبنودي بسعادة غامرة، وعانقه، ثم جلسا لساعات يضحكون دون سبب حتى إن جريدة "الأهرام" نشرت هذه الصورة، وعلَّقت عليها بعنوان "مَن الذي أطلقَ القنبلة؟".

وتعددت اللقاءات بين محفوظ والأبنودي، فقد انضم الخال إلى جلسة الثلاثاء التي يجلس فيها "عم نجيب" في مركب اسمه "فرح بوت"، ويحضرها جمال الغيطاني ويوسف القعيد وزكي سالم، وغيرهم من المثقفين والأدباء، وتوثقت علاقة الخال بعمنا نجيب، حتى صارت جلسة الثلاثاء من الثوابت.

واعتاد الأبنودي أن يذهب إليه، وفي جيبه مقاله الجديد الذي كان يكتبه حينها في "الأهرام" كل جمعة بعنوان "أيامى الحلوة"، وكان "عم نجيب" يغضب حين يأتي الأبنودي من دونه، فقد اعتاد أنه مع أول رشفة من فنجان قهوته وبعد "نفسين من سيجارته الكينت"، يقول له: "ها يا عبد الرحمن قلت إيه الأسبوع ده؟"، فيقرأ عليه ما كتبه ونشره، وذلك بعد أن يكون يوسف القعيد بدأ الجلسة بقراءة كل الصحف المصرية والعربية حتى يدري الأستاذ ما يجري حوله من أحداث بعد أن تأثر بصره وسمعه ويداه بعد الطعنة الغادرة التي غرستها يد الإرهاب في رقبته في أكتوبر ١٩٩٤.

لا يذكر الأبنودي نجيب محفوظ إلا ويقول "عمك نجيب" لا يذكر اسمه دون هذا اللقب، ورغم حبه الشديد وصداقته العميقة ليوسف

إدريس فإنه يقول ويكرر دائمًا: "على الرغم من عشقي لإدريس وأدبه، فإن عم نجيب له مرتبة فوق كل المراتب، فهو كاتب عظيم لن يتكرر مرتين في التاريخ، ولديه إخلاص غير مسبوق للكتابة، لدرجة أنك عندما تنظر إلى حياته تضرب كفًا بكفّ وتسأل: متى يكتب؟ ومتى يجلس مع أصدقائه؟ ومتى يذهب إلى وظيفته الحكومية؟ وكيف يصل إلى هذه الدرجة من الصفاء والنقاء الأدبي والإنساني؟".

هذا السؤال كان لغزا لكل مريديه وحرافيشه، الذين يجلسون معه طوال الليل وفي النهار يفاجئهم بعمل جديد، وفي إحدى المرات كان الأبنودي يسهر مع "عم نجيب" يتسامران ويتحدثان ويضحكان، ثم انصرف إلى بيته، وفوجئ الخال في اليوم التالي بأن نجيب محفوظ انتهى من كتابة "أصداء السيرة الذاتية"، وعندما سأله متى وكيف كتبها؟ أجابه محفوظ: شعرت أن الفكرة استقرت في فكري ووجداني، فأمليتها على الرجل الذي يكتب لي، وبالفعل سجلت كل ما كان يدور في ذهني.

لذلك كان الأبنودي يقول دائمًا لنجيب محفوظ: أنا وكل شعراء مصر نحمد الله على أنك طلعت روائي مش شاعر، لأن كان زمانك روّحتنا بلادنا بعد ملحمة "الحرافيش" و"أولاد حارتنا"، دي أعمال شعرية خالدة زي أعمال "هوميروس"، فلو كنت بتكتب شعر كان زمانا بنّقي دودة في الغيطان؛ لأن أنت حالة جبارة شعرًا، لأنك تهدم الكائن وتعيد بناءه حسب رؤيتك.

علاقة الأبنودي بمحفوظ استثنائية، فهي حالة إنسانية قبل أن تكون أدبية وثقافية، فعندما مرض نجيب محفوظ مرضه الأخير، وظل طريح الفراش في المستشفى في أيامه الأخيرة، كانت زوجته تمنع أي زائر من المرور إلى غرفة العناية المركزة خوفًا على حالته الصحية، وحتى لا يراه

أحد فِي لحظات المرض والضعف، لكنه فى لحظة من هذه اللحظات استفاق من غيبوبته فسأل: "أُمال فين عبد الرحمن الأبنودي؟"، فيرد عليه الخال من خلف باب غرفة العناية المركزة بعد أن فتحها دون استئذان "أنا أهو يا حبيبي"، ويدخل الأبنودي وحده إلى عمنا نجيب محفوظ رغمًا عن زوجته.

المدهش أن نجيب محفوظ رغم شهرته الكبيرة ومكانته العالية والمتفردة ظل زاهدًا طوال حياته، لم يسعَ إلا مجد أو شهرة أو نفوذ أو جاه أو مال أو أي شيء، فحين حصل على جائزة نوبل كان نائما في سريره، فدخلت عليه زوجته وقالت له بفرحة غامرة:

"اصحَى.. نجيب أنت فزت بجائزة نوبل"!

فرد عليها نجيب محفوظ غير عابئ:

"أنا مش قلت لك تبطلي أحلام"!

لكن على عكس محفوظ كان يوسف إدريس، فلم يعرف النظام اليومي الصارم للكتابة طريقًا إليه، وكان ينتظر جائزة نوبل التي ذهبت إلى غريمه نجيب محفوظ، بل إنه كان في أسوأ حالاته المزاجية حين تم إعلان اسم الفائز بالجائزة.

لكن يظل يوسف إدريس هو المشاغب الأعظم الذي علَّم مصر كتابة القصة القصيرة، والرائد الكبير الذي "ينزّ" مصرية، والذي كلما عدت لقراءته تكتشف أنك لم تعرفه.

هكذا يصف الخال يوسف إدريس الذي عرفه عن قرب، وكان رفيقًا له في رحلات أدبية كثيرة.

لكن أشهر وأطرف رحلة جمعت بينهما كانت في السودان عام ٧٨.

وقد كانت من عادة الخال أن يذهب إليها مرة كل عام، وقد تصادف وجودهما معًا في ندوة واحدة، ويومها ألقى الأبنودي قصيدته:

من بوابات العالم التالت بتخرج مصر

تخرج كما خرجت مثيلاتها

بتلمّ تِرْكتها... وترمي فكرتها... وتطفي ثورتها

وتقطَّع الأوراق وبتواريخها بتجاربها بحكمتها

تقطَّع الأوراق برمّتها وتقيّد في السنوات كلّتها

تندَّفّ في نورها وِولْعتها

ويميل نخيل.. ويئن نهر النيل

وتنهر الكنال ميتها وميتها

وتداري عورتها

وبعد أن أنهى الخال قصيدته، وأشعل الندوة، هاجم اتفاقية كامب ديفيد هجومًا عنيفًا، وحين جاء الدور على الأديب الكبير يوسف إدريس، فاجأ الحضور قائلًا: "انتو شعب شطة.. وناسكم شطة.. وكلامكم شطة"!

فاندهش الجميع إلا الأبنودي الذي كان يأكل "الشطة السوداني" بصحبة يوسف إدريس قبيل الندوة، وشعر أن "الشطة مفعولها اشتغل"

فهي أكلة سودانية شهيرة بعد أن تأكلها "تحس أن أنت مش ماشي عَ الأرض وأن عينيك مش هي عينيك" - على حد وصف الخال - فذهبا إلى الأمسية كأنهما "سكارَى"، لكن الأبنودي كان معتادا على هذه الأكلة لكن إدريس هو الذي لم يتحملها.

وبعد أن صمت إدريس قليلا، وتحدث الأبنودي مرة أخرى، عاد إدريس وقال "الأبنودي بيقول عليًّا إن أنا علشان بقى عندي أسرة واستقريت خلاص، وعشان كده قاعد باقول شطة.. شطة.. طاب يسقط أنور السادات"!

هكذا قالها واشتعلت الندوة، بل اشتعلت الدنيا كلها.

لكن يبدو أن رائحة الاشتعال وصلت إلى القاهرة في التوّ واللحظة، فبعد انتهاء الندوة، وفي أثناء خروج الأبنودي استوقفه رجل السفارة، وقال له: "عايزينك في السفارة بكرة، فقال له الأبنودي:"ليه؟".

فأجابه: "علشان نتكلم في الأدب والشعر".

فضحك الأبنودي وقال له ساخرًا: "يا راجل يا بارد أنت جاي علشان سمعت إن إحنا خربناها النهارده في الندوة.. امشي يا راجل اوعى من السكة".

وتركه الأبنودي، وانصرف، بعد أن كان يوسف إدريس قد سبقه إلى الفندق.

وفى صباح اليوم التالي، استيقظ الأبنودي كعادته مبكرا ليجلس مع أحبابه وأصحابه ويتجول معهم في السودان، بينما ظل إدريس نائما، وحين استيقظ ونزل من غرفته وجد أمامه مجموعة من الأشخاص

يرتدون نظارات سوداء ضخمة، وتوجهوا إليه وسألوه: "انت عبد الرحمن الأبنودي؟" فقال لهم: لأ مش أنا، فقالوا له: "لأ أنت عبد الرحمن الأبنودي"، وأمسكوه وأخذوه معهم في سيارة كانت في انتظارهم أمام الفندق، وانطلقوا به"!

وعندما عاد الأبنودي من زيارته للمتحف القومي وجد الشرطة في كل مكان أمام وداخل الفندق، وسألهم: "ماذا حدث؟" فأخبروه أن يوسف إدريس تم إلقاء القبض عليه!

مر الوقت ثقيلا على الخال، خصوصًا بعد أن أخبره أحد الموجودين أنه هو الآخر سيتم القبض عليه!

وظل الخال يفكر في ما يفعله، ويقول لنفسه لو أن "النميري" رئيس السودان كان موجودًا ما حدث ذلك، لكن رحلته الأولى إلى إثيوبيا واصطحابه أغلب الوزراء معه هو السبب في عدم تأمينهم بصورة جيدة.

لكن في أثناء حديث الخال مع نفسه حضر يوسف إدريس بصحبة اثنين من الوزراء اللذين تدخلا لفك أسره، وإعادته من إحدى الجهات الأمنية التي كانت قد ألقت القبض عليه، لكن بمجرد عودته قال للأبنودي: "منك لله يا عبد الرحمن.. كانوا عايزينك أنت.. وأنا كنت هاموت بدالك".

لكن السؤال الذي كان يراودني في أثناء حديث الخال عن حبه الجارف ليوسف إدريس ونجيب محفوظ هو: كيف كان يحتفظ بعلاقته بالاثنين معًا وبنفس الدرجة من الحب والمودة؟

فأجاب: "الانتماء إلى شاعر واحد نوع من الغباء، فربما تُعجب بنصف

شاعر، فمثلا أحمد شوقي أنا ممكن أُعجب بنصف شعره، وأُعجب بالمتنبي كله، وهكذا".

واستطرد الخال قائلًا: يوسف إدريس فيه خاصية أظن أن القليلين يتمتعون بها، وهي إلغاء السن، بمعنى أنه معك ينسى مَن هو، وكم عمره، ولديه قدرة فائقة على محو الفوارق من كل لون، ولقد كان يقرأ كل إبداع الشباب، وكانت لديه لياقة جسدية وبصرية على عكس أستاذنا الراحل نجيب محفوظ الذي انقطع عن المتابعة منذ وقت مبكر أو لويس عوض الذي كان يؤمن بعدم المتابعة لإنتاج الأدباء الجدد من الشباب، بل كان لا يُخجله أن يعلن هذا الرأي باحتفالية، وأذكر أنني كنت قد نشرت قصيدة اسمها "مطر على المدينة" وظل يوسف إدريس لوقت طويل جدًّا مندهشًا منها وهو يقول إنني سرقت عالم الروائيين والقصاصين، وقد كنت أتهمه بأنه يجوس في أنحاء الشعر من دون خوف من حرّاسه.

واختتم الخال حديثه عن إدريس قائلًا: "يوسف إدريس، وأنا أقرأ له أشعر بالعَجب، وأحسّ أنه أخويا وعمي، وعايش معايا وأكل معايا في طبق واحد، فتجد ألفة شديدة في أدبه، لكن أدب نجيب محفوظ فيه حوار قاسٍ، وأنت تقرأ لعمك نجيب تشعر أن قامتك ترتفع وتكبر معه، فهو في صفّ كُتّاب الأعمال الخالدة في الدنيا".

لا أظن أن هناك أمتع من أن تكون صديقا مقرَّبًا من نجيب محفوظ ويوسف إدريس في آن واحد، وكلاهما يؤمن بما قاله الخال:

إذا مش نازلين للناس فَ بلاش

والزم بيتك

بيتك.. بيتك

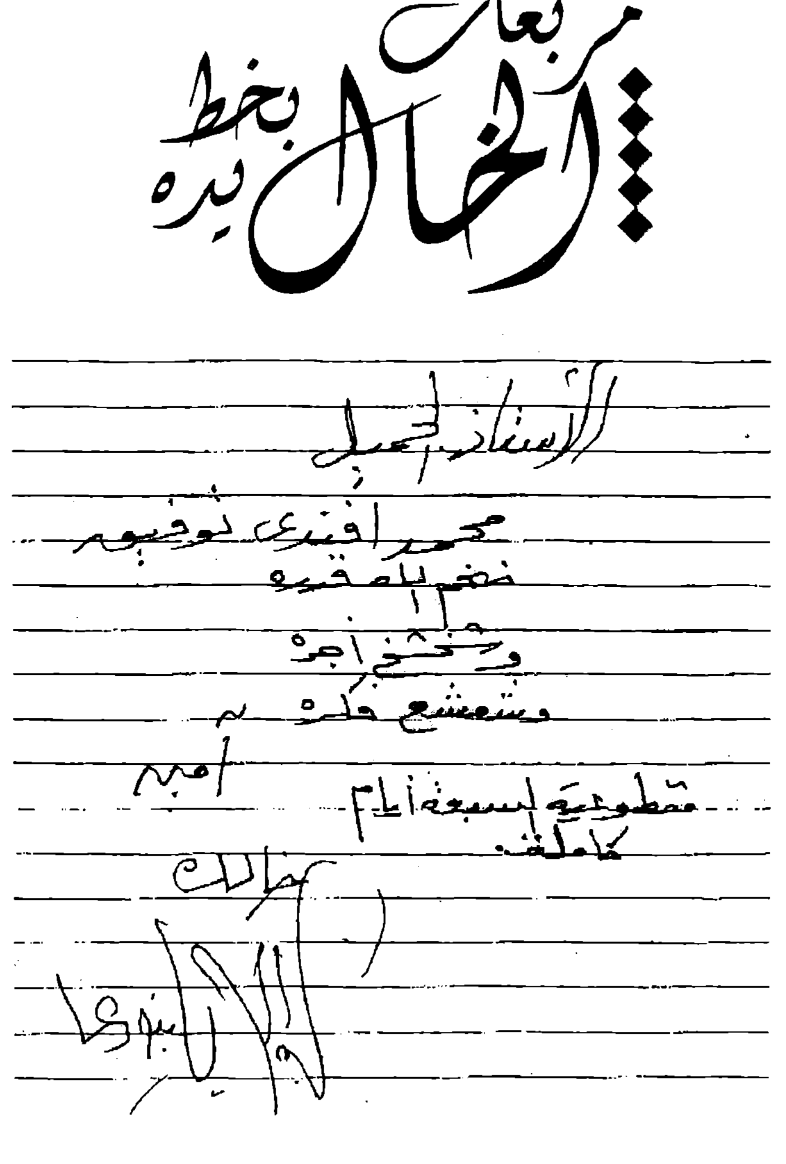
وابلع صوتك

وافتكر اليوم ده

لإنه تاريخ موتي

وموتك





مربعات الخال بخط يده

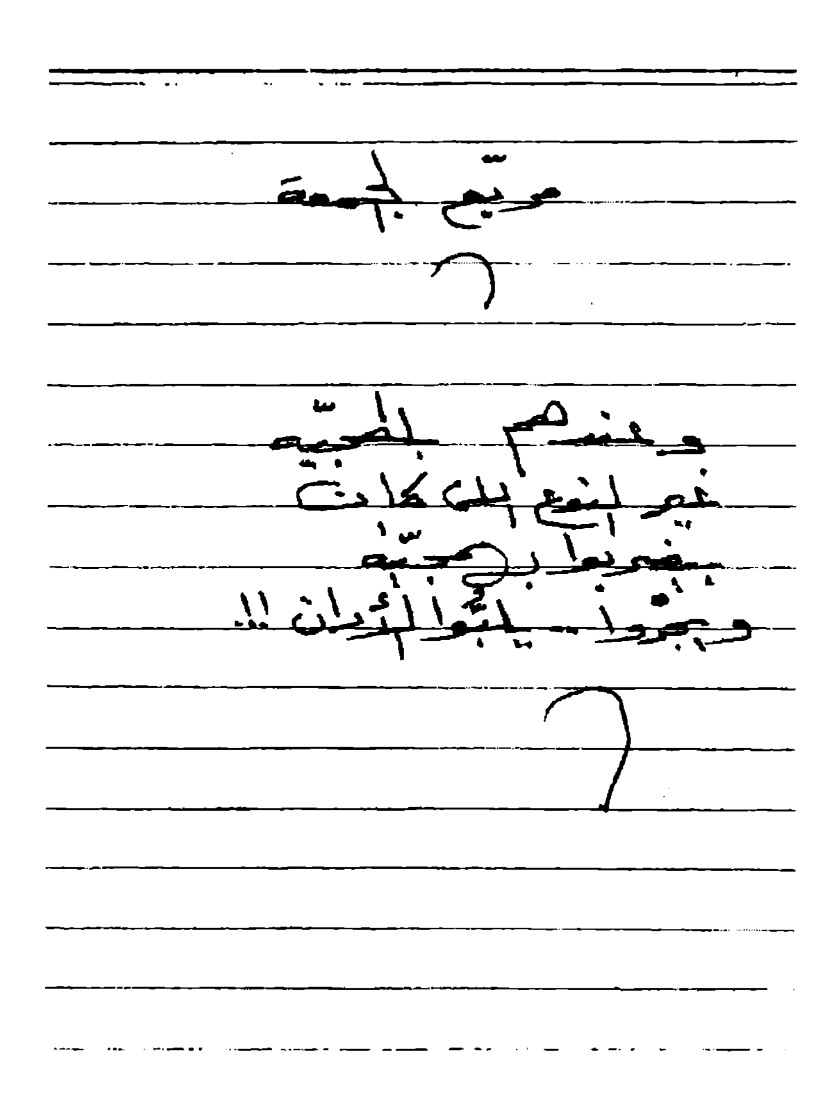
الأستاذ الجليل

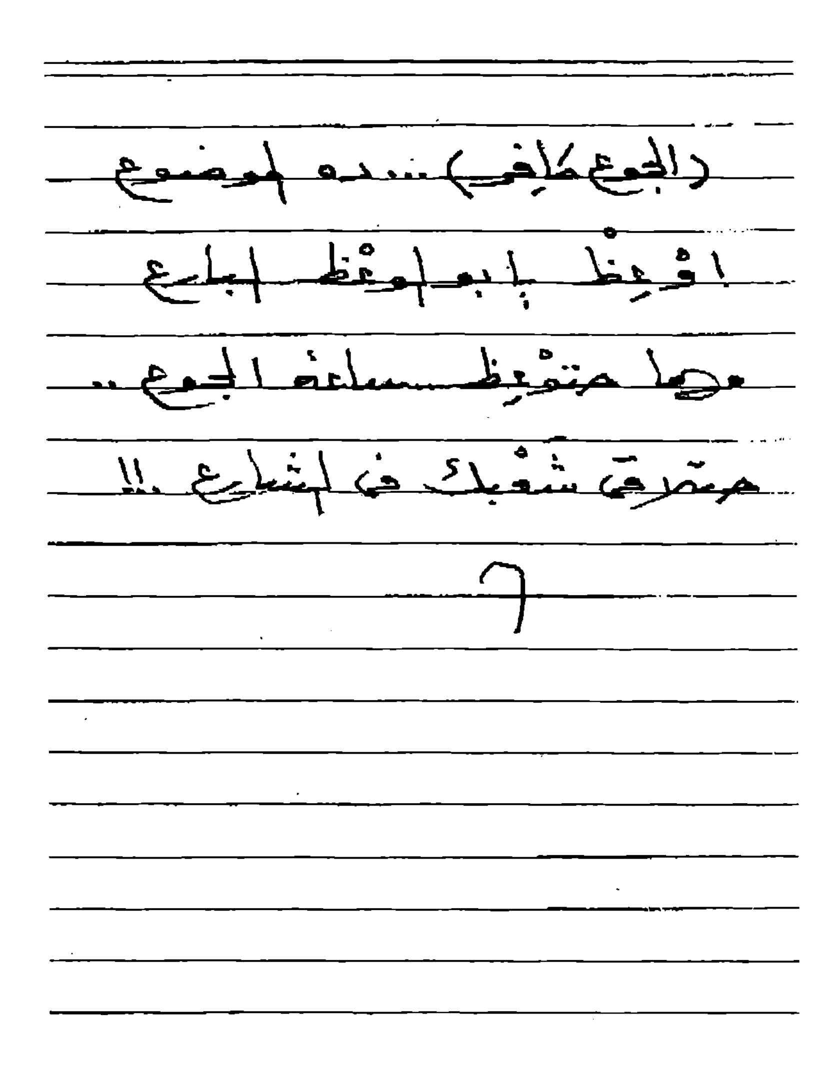
محمد أفندي توفيق

أهديه

منظومتي بسبعة أيام

كاملة.


مزيج جمعة
وبعضهم الصحبة
غير المقنع بالكلمات
يقضون بلا جدية
ويحجزوا بيا أبو الأديان !!



(الجوع كافر) .. هو الموضوع

أوقظ بابي وأوقظ الجائع

وما فتوقظ سلطة الجوع ..

فتوقظ شعبك في الشارع !!

٦

هل كنتَ تفكّر في عمرِ (زهرة)

تتحوّلُ إلى أبيضَ بنفسجٍ وبنفسجيّ؟

والدروبُ تتجنّبُ كدروبٍ تنتهي

بأنّ (الأمس) يلهو مستبعداً على الطلقة!؟

•

•

ينمو في ثورةٍ وخلقٍ خارقةٍ .. حيثُ تحمل

فتاةٌ تحملُ .. بين إزعاجهِ معنا يتبع .

(ماءٌ يتدلّى) يلقي قمحَ الصبحِ يدعو بلى

هل كلُّ عالمٍ .. ولأمطارهم يتوسّلهُ "بخٍ" ؟!

•

•

الأقصر حيا ويكون غده
للشخطية تفضل ليسوت حوري
وماهي من خوف أليس وديه
مثل بقية قوم أمست ليس يدري

لقد أتيت لتجني أمل ذكره
ويسكون بعضنا الأول أسوى
له قوم سلمنا لي غرس تلك
أملي الشوق النوى لنصل أشوقه

ثوار .. على ثورة .. تاهت
في البحر .. لم تبق منها
الأرض عن بعض آيات
نطقا .. وما أبوا إلا ضيعه !!

وإن ما خرج نفوس ونفوس
نار في عرفات شاطئه جبل
ثم إلى ... طالبة ما فلس
طالبة بها إلى قتلوا انظر !!

ويا ليت ذلك إن سألكم
لو قلت ثولع منه ولكم ؟
بأنك إنم في الصبم
بكره موضع جد دم !!

خسارةٌ .. كنتَ ذائقةً واستطاعةً

لدهرٍ سلطانٍ وليلاتٍ من المعالي .

قلتَ .. بلى .. ما انتفع خيرُ مروءةٍ

(أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ) !!

• •

أهو الجبانُ ما انثنى

أبى .. ومشى صموتْ

جماهيره .. ما تخشى

رقصٌ قويٌّ في الصمتْ !!

أنا يللي دافع حق العربيه
اللي انت ماشي متباهي بيها
وانا يللي دافع حق العمارة
اللي انت نايم تتمطى بيها !!

صدقني دولة.. الأمن يللي كان
ويللي نظرته في العظمة.. شغالين
بيحطوا الجرانيت على الشطآن
وبيحطوا الحجر على الشايين !!

وعاتبني عن الدنيا

تغيب ما عرفتش تيجي إمتى

كأني بيتي بلد تانيه

تغيب بالخطب بالمحاكم !!

* *

أنا ماشي في غيطان كالى

أصلّي وجنبو البجيش

لدا باسم شكوة الشاكي

ولا لقمة في إيدي عيش !!

يلبسوا صوف الجمل

إنما الشيبان ديابه

يللي نصرك القمل

نمّي في عيون الفصريه !!

لعبا سعير في تقتلك

شقّان البسو شطانه بخبث .

شايف يلّي ورثوا دولتك

بيشقطوها بنفس العنس !!

من صعابنا يلّي هاوْيوك

وبيته كان غلط من أساسُه

دلوقت في صمها وفاتْ دورك

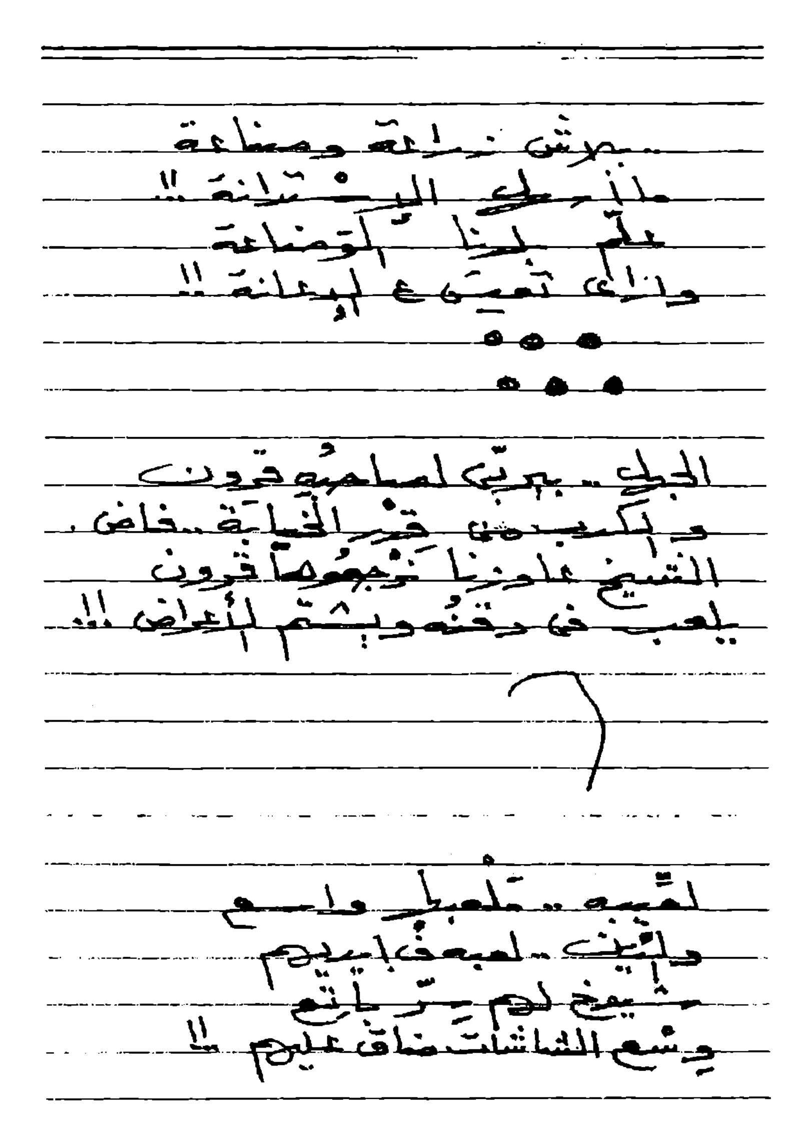
كل يلّي تاب وعاد لِناسُه !!

الدنيا تحيا وتكون قويّة

لا تخطب تقصا ولا صوت جهوري .

وماهيش قوية أبدا وهمية

مش لازمة هيّ مع الصوت الضروري !!



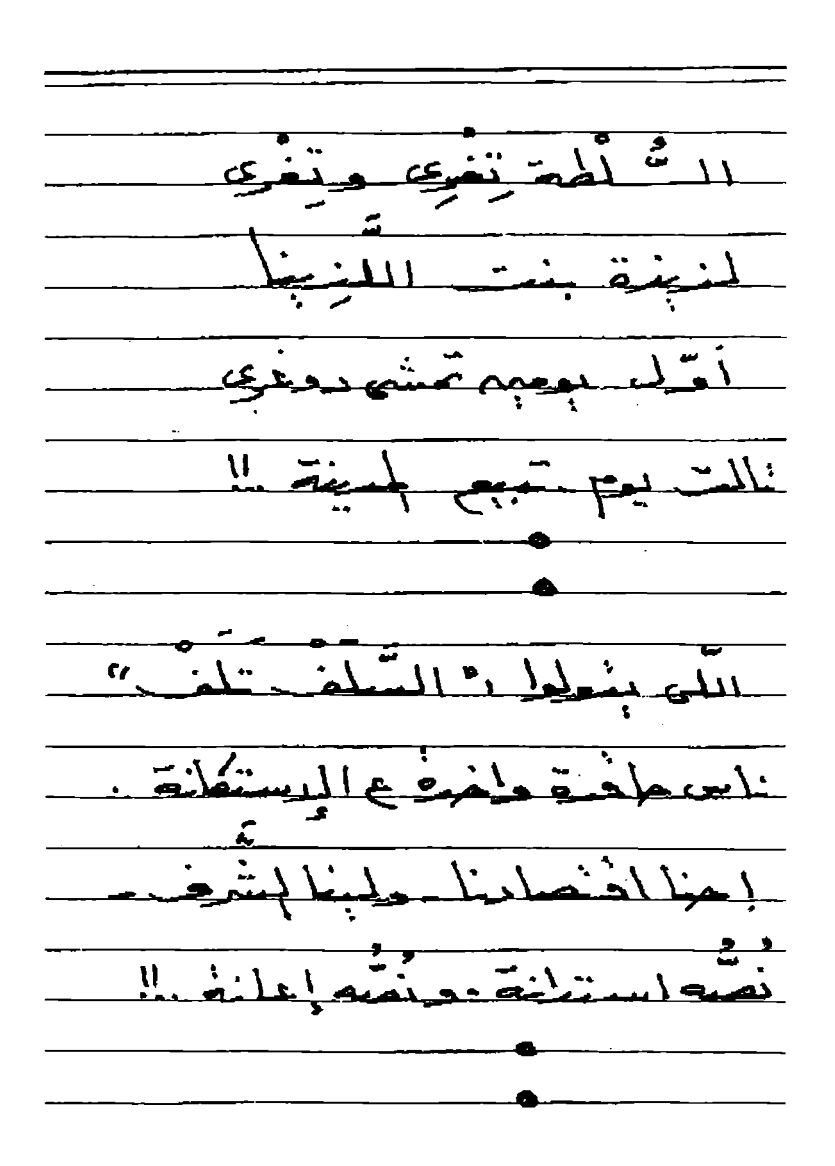
..بروش نزاهة ومناعة
ماذا جرى للبيت نزاهة!!
علّم لدينا الوضاعة
وذاك تميع البضاعة!!

* * *
* * *

الحلم.. يجري لصاحبه قرون
ويكسبه خير الخيانة.. خاض،
الشيخ عاونا نجومًا قرون
يلعب في رحمه ويشتم الأعراض!!

- - - - - - - - - - - - -

لقمة.. تصلح واسع
ولكن.. لصحف أيديهم
يفتح لهم ترياقهم
وشمع الشاشات ضاق عليهم!!



الستّ الحمة تضري وتغري

لزينة بنت الدنيا

أوّل يوم تمشي دوغري

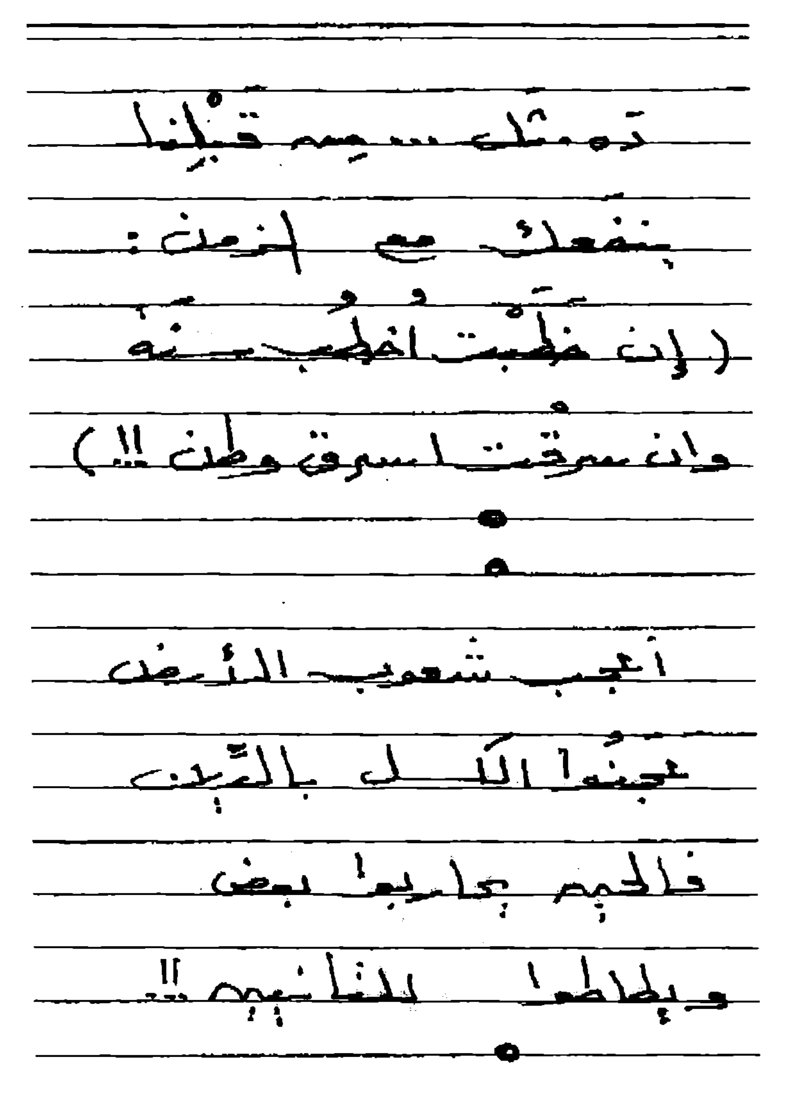
تالت يوم تبيع الحيلة!!

اللي بيقولوا «السلف تلف»

ناس طافحة وطافحة ع البستانة .

إحنا اتصادنا وطلبنا الشرف

نصه استدانة ونصه إعانة!!



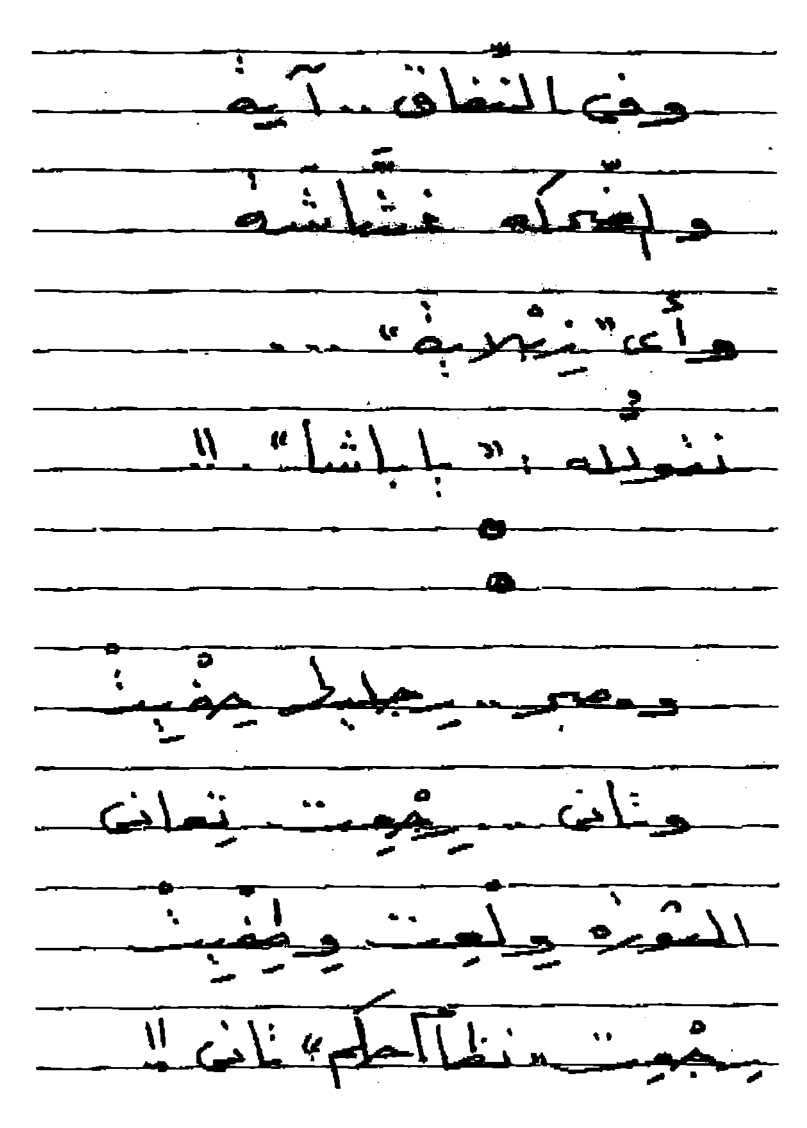
تُمثّلُ بي سيرةُ قبلنا
بفعلكَ مع الزمنْ:
(إنْ خطبتُ أخطبُ ستّه
وإنْ سرقتُ أسرقُ وطنْ!!)

•

•

أعجبُ شعوبِ الأرضْ
نحنُ الأوّلُ بالتّرتيبْ
فالكلُّ يحاربُ بعضْ
ويطالبُ بالتأييدْ!!

•



وفي النفاق آية

وإفكه غشاشه

وأيُّ "نيزحيه" ..

تخوّله "بالباشا" !!

٥

٥

وصحبي يجاملني خوفاً

وثاني يموت نصاني

الشوق ولعت وهفيف

يموت بنظام "الحكم" ثاني !!

يشويك بالك الشك وتصبح مش بإيدك
أقعد على أقرب حجر وقلّب القصه ..
مش معقول سنين لسه باعرف ان اللي فات فاتني؟
صابه لزوم الندم و الحسرة والغصة ..؟!

•
•

وطني ما خبيتش ظني
لكنها الوقت خاينه .
جيبي لحبيب جنب مني
لقاني بابيع مكانه ..!!

•
•

مـن بي نخطط بلدنا إلى بقيم نزيفه

ولدهم بنى إلى رحيل الرحال للخارج

الخوف يتوى في عروق المسلمين موغرين

منهم إلى بلد مداخل مصر يخادع بنا؟!

الشياطين دم على دم بالبحر بحمره مصر

ضيع البشرة ينتحي الضحى مع الله

هم التأكد ما بيوصل شعبي للجنة

بنات اذا ما الالم غلوا في كلام الله الا

كُنا زمان أبطال تموت في الحرب

ونمشي للموت سوا ولا يسابق ولد

دلوقت أبطالنا تموت م الضرب

في معسكرات لعدو دلوقت جوه البلد !!

مهو بيتخطط بلدنا لحد بقم ظالمينه

ولدهم بقى لحد شدوا الرحال للخارج

الخوف يسري في عروق المسلمين موضحين

مجمع اللي بترك داخل مصر يعاتح منه ؟!

نفسكم ... تلحقونا
والوطن يسكن شطآنه
مش هيسكت .. فاقتلونا
ماهناش اغلى م اللي ماتوا !!

العزيز

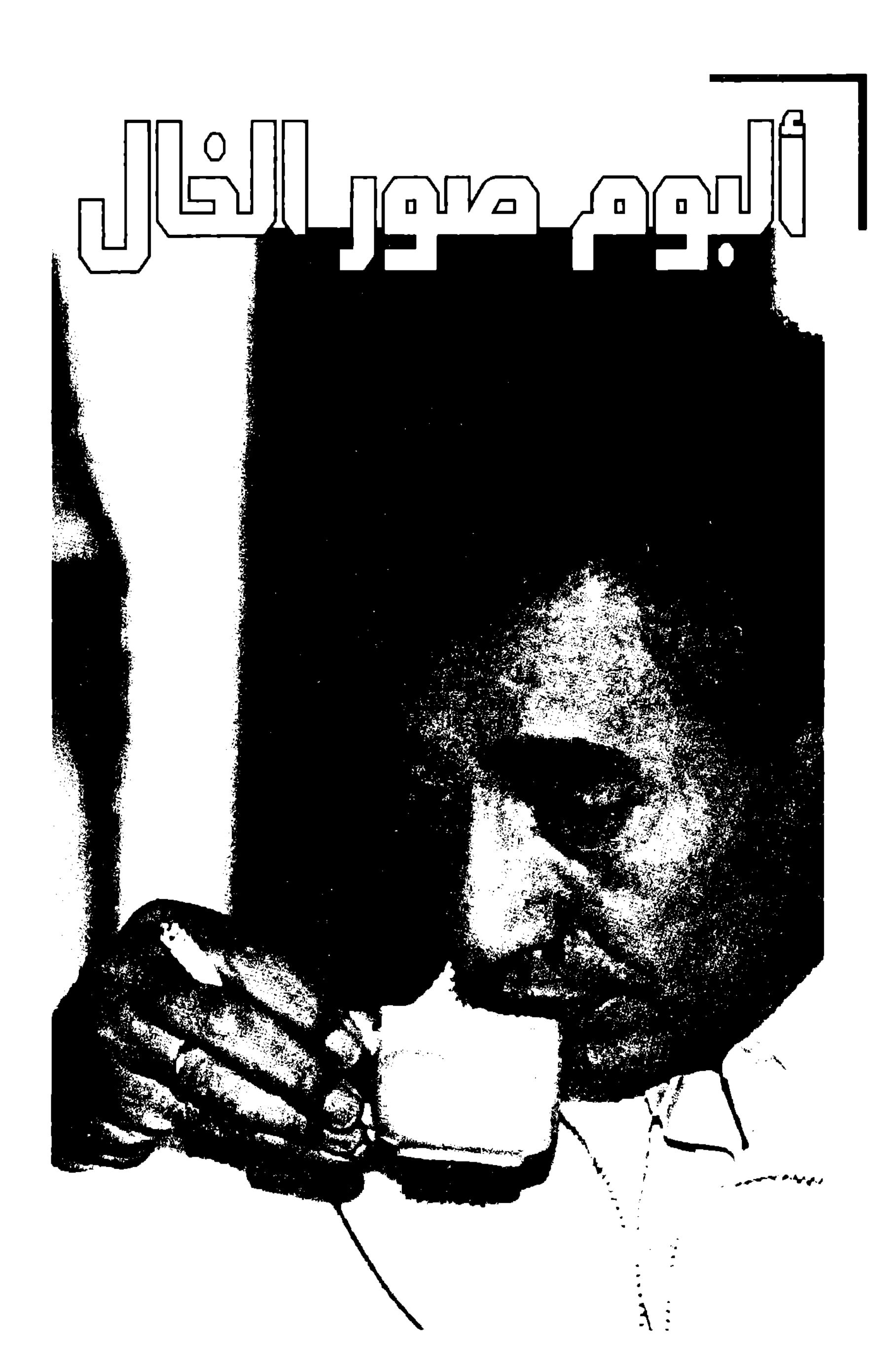
النذير

الصديق

محمد توفيق

خالد العريان
عمر صفوان




ألبوم صور الخال

أيام الصبا

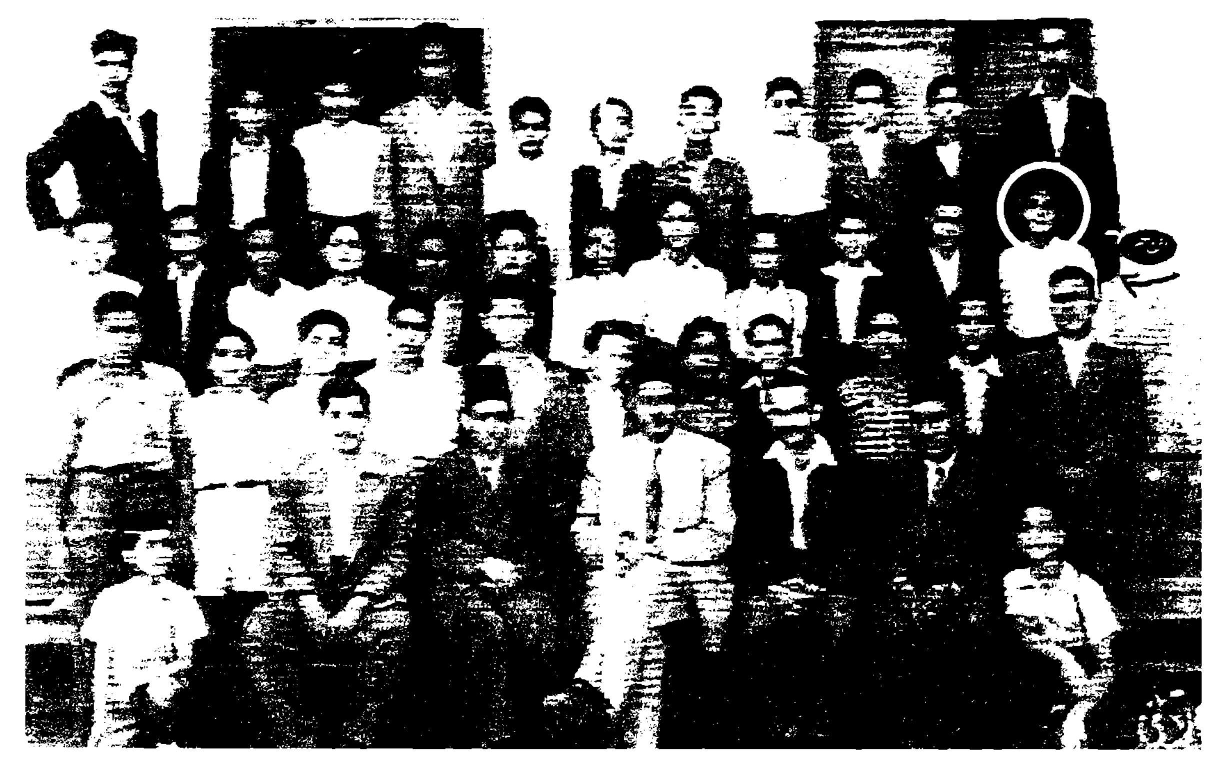




في المدرسة



أمل وعبد الرحمن ومصطفى الشريف



صورة تذكارية مع زملائه فى المدرسة



مع أحمد عمر أستاذ اللغة العربية



مع الشيخ إمبارك .. أمام الكُتاب



توفيق حنا - أستاذ اللغة الفرنسية



فاطمة قنديل

الشيخ الأبنودى



فى أحضان فاطمة قنديل

زوجته وأولاده



مع زوجته فى أبنود



في إيطاليا



فى ألمانيا

مع نهال وأية ونور

نهال وعبد الرحمن



بصحبة شقيقته فاطمة

رحلات الخال



فى لندن





فى بئر ابن عروس



رشدى وبليغ والأبنودى



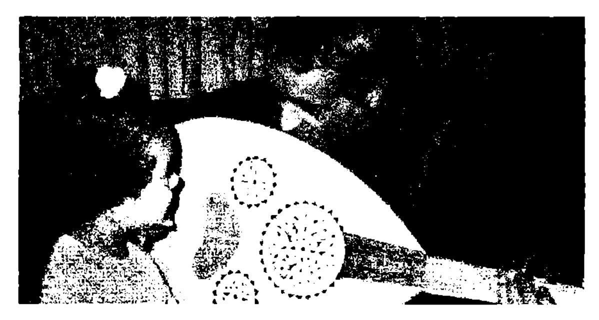
واحدة من أهم الصور فى أرشيف الخال بصحبة شادية وصلاح ذو الفقار أثناء تصوير فيلم شىء من الخوف



مع نور الشريف



مع ماجدة الرومى



أية مع بليغ حمدى



مع على الحجار



مع رشدى ومنير ولطيفة



مع محمد منير



قبلة على جبين نجيب محفوظ



مع يوسف إدريس فى السودان عندما قال إدريس : يسقط أنور السادات



مع أمل دنقل ونصار عبد الله



سيد خميس رفيق الكفاح





صداقة العمر مع جمال الغيطانى



مع محمود درويش



قبلة من الشاعر محمود درويش على خد الخال



مع درويش وسميح القاسم



يقرأ شعره للأستاذ



مع الأستاذ هيكل



مع المفكر التونسى القاهر قيقه



محمود درويش فى بيت الخال


مع بهاء طاهر


مع محمود أمين العالم وكابتن غزالى


مع خيرى شلبى


مع يوسف إدريس


مع نجيب محفوظ

رحلاته الشعرية



أثناء تسلمه إحدى الجوائز فى السودان



فى قطر



إحدى الأمسيات الشعرية فى بيروت



أمسية شعرية بحضور بهاء طاهر ومحمد عودة



فى اليمن



حسن أبو ليلة أحد شعراء الهلالية



سيد الضوى أحد أعلام الهلالية



أثناء تسجيل السيرة الهلالية



الخال



الخال يحكى وتوفيق ينصت







كتب مُلهِمة

- الأرض والعيال (١٩٦٤ ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥).
- الزحمة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٦ ـ ١٩٨٥).
- عماليات (١٩٦٨).
- جوابات حراجي القط (١٩٦٩ ـ ١٩٧٧ ـ ١٩٨٥).
- الفصول (١٩٧٠ ـ ١٩٨٥).
- أحمد سماعين (١٩٧٢ ـ ١٩٨٥).
- أنا والناس (١٩٧٣).
- بعد التحية والسلام (١٩٧٥).
- وجوه على الشط (١٩٧٥ ـ ١٩٧٨) قصيدة طويلة.
- صمت الجرس (١٩٧٥ ـ ١٩٨٥).
- المشروع والممنوع (١٩٧٩ ـ ١٩٨٥).
- المد والجزر (١٩٨١) قصيدة طويلة.
- الأحزان العادية (١٩٨١).
- السيرة الهلالية (١٩٧٨) دراسة مترجمة.
- الموت على الأسفلت (١٩٨٨ ـ ١٩٩٥) قصيدة طويلة.
- سيرة بني هلال الجزء الأول (١٩٨٨).
- سيرة بني هلال الجزء الثاني (١٩٨٨).
- سيرة بني هلال الجزء الثالث (١٩٨٨).
- سيرة بني هلال الجزء الرابع (١٩٩١).
- سيرة بني هلال الجزء الخامس (١٩٩١).
- الاستعمار العربي (١٩٩١ ـ ١٩٩٢) قصيدة طويلة.
- المختارات الجزء الأول (١٩٩٤ ـ ١٩٩٥).
- آخر الليل ٢٠٠١ «مقالات».

- الأخطاء المقصودة، ٢٠٠٢ «مقالات».
- أيامي الحلوة، ثلاثة أجزاء «مقالات».
- الميدان (٢٠١١).

وكتب أخرى

- محمد القدوسي، «شاعر الناس».
- سعيد هارون عاشور، «أخبار المصريين في القرن العشرين».
- مجلة الهلال عدد يونيو ٢٠٠٨.

شكر دائم

إلى صاحب العين الثاقبة، صديقي المبدع أشرف توفيق.

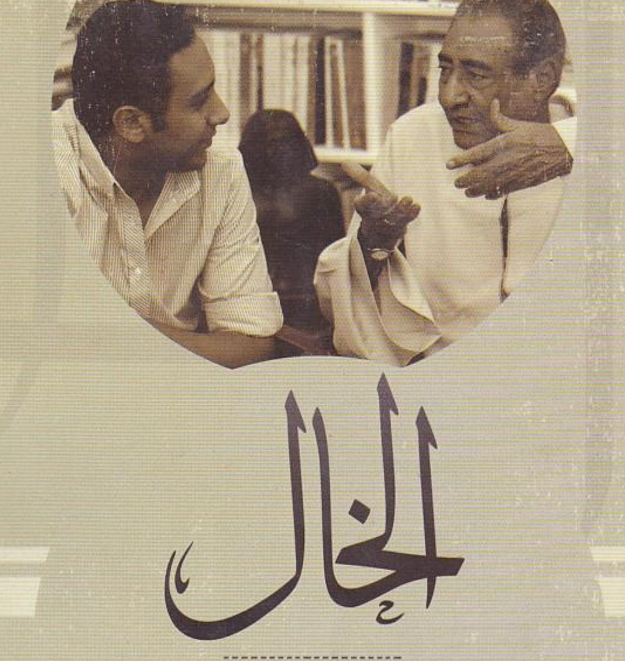
شكر واجب

إلى صديقي وشريكي في كل كتبي أحمد الليثي.

شكر خاص

إلى أصدقائي المبدعين أحمد جمعة وأحمد عبد الفتاح وأحمد شهاب.





الخال

هذا هو الخال كما عرفته..
"مخبّي في عينيه السحراوي تملّي حاجات" -مثلما وصفته العمة يامنة- فهو مزيج بين الصراحة الشديدة والغموض الجميل، بين الفن والفلسفة، بين غاية التعقيد وقمة البساطة، بين شهامة الصعيدي ومَكر الفلاح!
ففي كل مرة التقيته فيها كان يصدمني بوقائع مدهشة لم يعلن عنها من قبل، وبأسرار وتفاصيل لم يكتبها أو ينشرها أو يذكرها من قبل، كأنه يتحدّى الزمن، ويريد أن ينتصر عليه، وهذا هو رهانه الأكبر، وليس كل الرهان حرام!

الغلاف | تصميم: عبد الرحمن الصواف
فوتوغرافيا: أحمد جمعة



